مجلة جامعة الملك سعود، م ٦، الآداب (٢)، ص ص٤٢٩-٤٧٦ (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

الثقافة النقدية لأبي الطيب المتنبي

محمد بن عبدالرحمن الهدلق

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها،
كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(ورد بتاريخ ١٤١٣/٤/٧هـ، وقُبل للنشر بتاريخ ١٤١٣/١٢/٢٦هـ)

ملخص البحث. عرف الدارسون أبا الطيب المتنبي شاعرًا عظيمًا ملأ الدنيا وشغل الناس، وقد تعددت الدراسات التي تناولت شاعريته وسيرة حياته، ولكن أحدًا من الدارسين لم يتعرض — حسب علمنا — إلى الحديث عن ثقافة أبي الطيب المتنبي النقدية، تلك المتمثلة في دفاعه عن شعره أمام هجمات النقاد، وآرائه التي أبداها في بعض القضايا الأدبية، وأحكامه التي أصدرها على شعر عدد من فحول الشعراء.

لقد خصّص هذا البحث لتجلية هذه الموضوعات، وإيضاح رأي أبي الطيب المتنبي فيها. وقد كشف البحث عن سعة ثقافة أبي الطيب المتنبي النقدية. وإحاطته بأشعار من سبقه من الشعراء، وقدرته العجيبة على استحضار تلك الأشعار في مواطن الجدل والمناقشة.

اهتم الأدباء والنقاد كثيرًا بأبي الطيب المتنبي، فقد أُلفت كتب كثيرة في شرح شعره والتعليق عليه، كما أُلفت كتب كثيرة في نقده وتتبع سقطاته. وقد ظفرت حياة أبي الطيب المتنبي هي الأخرى بالكثير من عناية الباحثين حتى أصبح الحديث عن سيرته أو شعره مظنة للتكرار والاجترار.(١) ومع هذا فإن هناك جانبًا يرى الباحث أن الدارسين المحدثين لم يولوه من العناية ما يستحقه وأعني بذلك الثقافة النقدية لأبي الطيب المتنبي، تلك المتمثلة في دفاعه عن شعره أمام هجمات النقاد من علماء اللغة ونقاد الشعر، وأحكامه التي أصدرها على بعض

---

(١) انظر في ذلك مثلاً ما رصده كوركيس عواد وميخائيل عواد في كتابهما: *رائد الدراسة عن المتنبي* (بغداد: وزارة الثقافة والفنون، دار الرشيد للنشر، ١٩٧٩م)، ص ص ٣٢-٣٩٨.

الشعراء، وآرائه التي أبداها في بعض القضايا النقدية.(٢)

والمصادر التي تحدثت عن ثقافة المتنبي النقدية كثيرة وأهمها: *الرسالة الموضحة* للحاتمي، *والمناظرة* أو *الرسالة الحاتمية* له، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني، *والفسر* لابن جني، *والفتح الوهبي على مشكلات المتنبي* لابن جني أيضًا، *والفتح على أبي الفتح* لابن فورجة، إضافة إلى شروح *ديوان المتنبي* الكثيرة. *والرسالة الموضحة* للحاتمي هي أكثر المصادر إحاطة بآراء المتنبي النقدية، ولكن الأخذ بما ورد في تلك الرسالة يتطلب الكثير من الحذر لأن الحاتمي خصم لدود لأبي الطيب المتنبي، وقد أحسّ الحاتمي نفسه بما يمكن أن يجول في ذهن قارىء هذه الرسالة من شك في صحة ما اشتملت عليه فقال: وقد «. . . أطلت عنان القول مع الرَّجُل (المتنبي) إطالة ربما اتُّهِمَ الحاكي لها، والمخبر عنها.»(٣)

ومع أن الحاتمي قد أكد صحة ما نسبه إلى المتنبي من أقوال، فإنه قد اعترف بأنه قد تصرف في عبارته، فلم يوردها بنصها وإنما هذبها، وحذف بعض ألفاظها، وكسا احتجاجاته عبارات من عنده يقول: «وأنصفت كل الإنصاف في تهذيب ما حكيته عن الرجل، وحذفت فضول الألفاظ، وكسوت احتجاجاته عبارات لعله لو اعتمدها لقَصَّرَت مادته في البيان عنها.»(٤)

يضاف إلى هذا كله ما يعاود النفس أحيانًا من شك في صحة وقوع اجتماع الحاتمي بالمتنبي في منزل المتنبي بربض حُمَيْد أَوَّلا، ثم بعد ذلك في مجالس ثلاثة قال الحاتمي إنها تمت

---

(٢) لقد ألفت هدى الأرناؤوطي كتابًا عنوانه: *ثقافة المتنبي وأثرها في شعره*، تحدثت فيه عن ثقافته اللغوية، والأدبية، والدينية، والفلسفية، والتاريخية. وقد كان اهتمامها منصبًا على تلمس أثر هذه الثقافة في تكوين شعر أبي الطيب المتنبي. أما بحثنا هذا، فإنه يتناول موضوعًا آخر وهو ثقافة أبي الطيب المتنبي النقدية، تلك التي شرحنا مرادنا بها في الأسطر السابقة في صلب هذا البحث. انظر: هدى الأرناؤوطي، *ثقافة المتنبي وأثرها في شعره* (بغداد: وزارة الثقافة والفنون، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٧م)، ص٢٩١.

(٣) أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي، *الرسالة المُوضِحَة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره*، تحقيق محمد يوسف نجم (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، ص٢.

(٤) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٤.

بحضرة الوزير المهلبي، وعدد من القضاة، والأدباء، والكتاب(٥) من بينهم: أبو سعيد السيرافي،(٦) وعلي بن عيسى الرماني،(٧) وأبو الفتح المراغي،(٨) وأبو الحسن الأنصاري المتكلم،(٩) وهبة الله بن المنجم،(١٠) وعلي بن محمد الشاعر المعروف بابن البقال.(١١) وقد ذكر الحاتمي أن الوزير المهلبي وبعض من حضر من الكبراء والعلماء والأدباء قد اشتركوا في بعض المناقشات ودَوَّنَ بعض أقوالهم. واللافت للنظر أن أيًّا من أولئك الذين قال الحاتمي إنهم حضروا اللقاءات لم يُشر — حسب علمنا — إلى تلك اللقاءات ولا إلى ما دار فيها، وكل الذي ذكر عنها — بعد ذلك — إنما هو مستقى مما أورده الحاتمي، وهذا أمر مثير للتساؤل. ولكن صمت أولئك العلماء والأدباء عن الإشارة إلى ذلك الحدث الأدبي الكبير لا يجعلنا نجزم بأن ما ذكره الحاتمي عنه إنما هو من نسج خياله، لأننا نستبعد أن ينسب الحاتمي إلى الوزير المهلبي — وهو رب نعمته — ما لم يقله، كما أننا نستبعد أن ينسب إلى بعض معاصريه من العلماء والأدباء حضورَ مجالس لم يحضروها، والإدلاء فيها بأقوال لم يتلفظوا بها. ولكن الشيء الذي لا نستبعده، بل نميل إليه، هو أن لا تورد أقوال المتنبي بتفاصيلها، وأن تهمل بعض نقاط القوة فيها، وأن يُصَوَّرَ المتنبي في صورة العاجز عن الإجابة، لأن تلك المجالس التي اشتملت الرسالة على بعض ما دار فيها قد عقدت بهدف مؤاخذة المتنبي، وتقريعه بسقطاته، وسرقاته.(١٢) وإهمال بعض أقوال المتنبي أو النقصان

---

(٥) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٢-٣، ٩٦-٩٧، ٩٨، ١١٩، ١٢٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٨٨، ١٩١، ١٩٤.

(٦) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٢٠، ١٩٠، ١٩٢؛ وانظر أيضًا: ص ص١٢٢، ١٣٨، ١٣٩.

(٧) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٢٠، ١٣٨، ١٣٩، ١٨٩.

(٨) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٢١.

(٩) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٢١، ١٤٢.

(١٠) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٩٧.

(١١) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٩٧.

(١٢) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٢-٤، ٩٧ وانظر: محيي الدين صبحي، *نظرية الشعر العربي من خلال نقد المتنبي في القرن الرابع الهجري*، ط١ (طرابلس وتونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م)، ص ص١٦-١٧.

منها، أو تغيير بعض ألفاظها يخدم ذلك الغرض الذي من أجله أُلِّفت الرسالة. ومع هذا كله، فإننا سنأخذ بما نسبه الحاتمي إلى المتنبي من أقوال، وإن كان لا يمثل الحقيقة الكاملة، ولا يمثل رأي المتنبي الدقيق، بل لعله لا يمثل إلا الحد الأدنى من المحصول النقدي لأبي الطيب المتنبي، لأنه لا يعقل — والأمر كما أوضحناه — أن ينسب الحاتمي إلى المتنبي رأيًا يُعلي من شأنه وهو لم يقله.

وثقافة أبي الطيب المتنبي ثقافة عريضة: لغوية وأدبية ونقدية، فقد نصت المصادر على أنه، بعد أن تعلم أصول القراءة والكتابة، صار يختلف إلى حلقات العلم وإلى دكاكين الوراقين، وكان له نهم كبير بالقراءة، فقد كان يمضي جزءًا من الليل في مطالعة الكتب، وكان يحرص على انتقاء كتبه، وتصحيحها وكان يُدَون عليها ملاحظاته.(١٣) وتذكر المصادر أنه عندما قُتِلَ في طريق عودته من فارس إلى العراق وُجدت من بين أمتعته أعدادٌ من الكتب التي انتقاها بعناية وأحكم قراءتها وتصحيحها.(١٤)

وقد كان المتنبي يمتلك حافظة قوية مكنته من اختزان كثير من المعلومات التي كانت تمرّ عليه، فقد روى ابن فورجة نقلاً عن رجل يُدعى ابن الحلاب أنه سمع المتنبي يقول: «من أراد أن يغرب علي بيتًا لا أعرفه فليفعل.(١٥)» ويقول ابن فورجة إن دعوى المتنبي تلك دعوى عظيمة ولكن لاشك في أنه كان صادقًا فيها.(١٦) وقد ذكر ابن الدهان النحوي أن المتنبي كان يحفظ كتاب *الحدود في النحو*، وكتاب *العين* في اللغة وأنه عظم في نفس أبي علي الفارسي بسبب ذلك.(١٧) وذكر الحاتمي نفسه أنه عندما زار المتنبي في مسكنه بربض حُمَيد ببغداد وجد عنده تلاميذ يقرؤون عليه شِعره وكتبَ المبرد حفظًا.(١٨) وقد ذكر هلال بن

---

(١٣) ترجمة المتنبي من كتاب بغية *الطلب* لابن العديم، منشورة ضمن كتاب محمود محمد شاكر، *المتنبي* (القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٧٧م)، جـ٢، ص٣٠٦.

(١٤) شاكر، *المتنبي*، جـ٢، ص٣٠٦.

(١٥) شاكر، *المتنبي*، جـ٢، ص٢٨٣.

(١٦) شاكر، *المتنبي*، جـ٢، ص٢٨٣.

(١٧) انظر: ضياء الدين بن الأثير، *الاستدراك*، تحقيق حفني محمد شرف (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م)، ص ص١٣-١٤.

(١٨) أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي، «مناظرة بين أبي الطيب المتنبي والحاتمي،» تحقيق حسن محمد =

المحسن الصابىء «أن ابن العميد كان يُجْلِس المتنبي في دسته، ويقعد بين يديه فيقرأ عليه *الجمهرة* لابن دريد؛ لأن المتنبي كان يحفظها عن ظهر قلب.»(١٩) وقد ورد في بعض المصادر أن ابن العميد ألف كتابًا في اللغة، وأنه قرأ ذلك الكتاب على المتنبي، وكان يتعجب من حفظه وغزارة علمه.(٢٠)

ولم تكن ثقافة المتنبي اللغوية مقصورة على الحفظ والاستظهار فقط بل إنها تجاوزت ذلك إلى إبداء الرأي فيما يقرأ، وتدوين الملاحظات عليه، فقد ذكر اللغوي علي بن حمزة البصري أن كتاب *المقصور والممدود* لابن وَلَّاد قد قرىء على المتنبي بمصر سنة ٣٤٧هـ، فوجد فيه أغلاطًا استدركها على مؤلفه، وأوضح وجه الخطأ فيها، واستشهد عند بعضها. ولما غادر المتنبي مصر جمع أبو الحسين المهلبي ردودَ أبي الطيب واستشهاداته ونسبها إلى نفسه.(٢١)

وقد كانت للمتنبي صلات وثيقة بعدد من علماء اللغة في عصره ومن بين هؤلاء أبو علي الفارسي، وابن جني، وعلي بن حمزة البصري، وأبو الطيب اللغوي. وكان هؤلاء العلماء يجلّونه ويقدّرون علمه. سأله أبو علي الفارسي مرة: كم لنا من الجموع على وزن فعلى؟ فأجاب المتنبي على البديهة: حجلى وظربى. وقد ورد في الخبر أن أبا علي الفارسي

= الشماع، *مجلة كلية الآداب*، جامعة *الرياض*، مج٤ (١٣٩٥هـ/١٣٩٦هـ - ١٩٧٥/١٩٧٦م)، ص٢٥١؛ وانظر أيضًا:

S.A. Bonebakker, *Hatimi and His Encounter with Mutanabbi: A Biographical Sketch* (Amsterdam, Oxford: North Holland Publishing Company, 1984), 31.

(١٩) شاكر، *المتنبي*، جـ٢، ص٢٧٥.

(٢٠) عبدالقادر بن عمر البغدادي، *خزانة الأدب*، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، جـ٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.)، ص ص٣٥٦-٣٥٧؛ أبو القاسم عبدالله بن عبدالرحمن الأصفهاني، *الواضح في مشكلات شعر المتنبي*، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، ط٢ (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦م)، ص١٦.

(٢١) علي بن حمزة، *التنبيهات*، تحقيق عبدالعزيز الميمني الراجكوتي، منشور مع كتاب *المنقوص والممدود* للفراء، سلسلة ذخائر العرب ٤١، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ص٣٢٥.

سَهِرَ ثلاث ليال يبحث عن جمع ثالث فلم يجد. (٢٢) وهذ الخبر — إن صح — يدل على معرفة باللغة غير عادية.

وقد روى أبو الحسن علي بن عيسى الربعي أنه كان يومًا عند المتنبي بشيراز فجاء أبو علي الفارسي لزيارة المتنبي في منزله، حيث كانت بينهما مودة فناول أبو علي الفارسي أبا الحسن الربعي جزءًا من كتاب *التذكرة*، وطلب منه أن يدون عليه بيتين من أبيات المتنبي وهما:

سأطلب حقي بالقنا ومشائخ كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا كثير إذا شدوا قليل إذا عُدوا

ويذكر الربعي أن هذين البيتين مثبتان في *التذكرة* بخطه. (٢٣)

أما ابن جني، فإن صلته بالمتنبي ذائعة مستفيضة، فقد كان من المعجبين به كثيراً، وقد قرأ عليه ديوانه وسأله عن كثير من المشكلات التي اعترضته، ثم شرح ديوانه شرحين، أحدهما مطول والآخر مختصر، وعندما قتل المتنبي رثاه ابن جني بقصيدة طويلة. (٢٤)

وأما علي بن حمزة البصري فقد كان صديقًا للمتنبي، وقد نزل المتنبي في داره عندما قدم إلى بغداد، ثم لما رحل المتنبي إلى فارس صحبه علي بن حمزة، وقد روى عنه ديوانه. (٢٥)

---

(٢٢) انظر في ذلك: أحمد بن محمد بن خلكان، *وفيات الأعيان*، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، د.ت.)، جـ١، ص ص١٢٠-١٢١؛ يوسف البديعي، *الصبح المنبي عن حيثية المتنبي*، تحقيق مصطفى السقا، ومحمد شتا، وعبده زياده عبده، سلسلة ذخائر العرب ٣٦ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣م)، ص١٤٣؛ الأرناؤوطي، *ثقافة المتنبي*، ص٨٢.

(٢٣) انظر في ذلك: ترجمة المتنبي من *تاريخ دمشق* لابن عساكر، منشورة ضمن كتاب محمود شاكر، *المتنبي*، جـ٢، ص٣٣٠. وانظر في إعجاب أبي علي الفارسي بالمتنبي كتاب *الفسر* لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق صفاء خلوصي، ط١ (بغداد: المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، جـ١، ص ص٢٥-٢٦.

(٢٤) أبو الفتح عثمان بن جني، *الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي*، تحقيق محسن غياض (بغداد: وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، سلسلة كتب التراث (٢١)، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٣م)، ص ص٥، ١٠٢، ١٠٧-١٠٩، ١٦٦، ١٨٢؛ ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي، معجم *الأدباء*، اعتنى بطبعه ونشره أحمد فريد رفاعي (القاهرة: دار المأمون، د.ت.)، جـ١٢، ص ص٨٦-٨٨.

(٢٥) ياقوت، *معجم الأدباء*، جـ١٣، ص ص٢٠٨-٢١٠؛ ابن جني، *الفتح الوهبي*، ص١٨٢؛ =

وأما أبو الطيب اللغوي، فقد كان المتنبي يلتقي به في مجلس سيف الدولة بحلب، وتروي المصادر أن نقاشًا جرى بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه النحوي في مسألة لغوية فلم يتفقا على رأي واحد، فطلب سيف الدولة من أبي الطيب المتنبي أن يبدي رأيه في تلك المسألة فأورد المتنبي كلامًا عزز به حجة أبي الطيب اللغوي وضَعَّف قول ابن خالويه.(٢٦) وحتى بعض أولئك العلماء والنقاد الذين ناصبوا المتنبي العداء وألفوا كتبًا أو رسائل في نقد شعره اعترفوا بسعة ثقافته، ونفاذ بصيرته. فالحاتمي مثلًا يعترف بسعة أدب المتنبي، وإن كان هذا الاعتراف قد ورد في سياق المؤاخذة. يقول الحاتمي مخاطبًا المتنبي: «أتراك مع فضلك وتوسعك في أدبك لم تطالع كتاب الفصيح؟»(٢٧) ويقول معقبًا على كلام ينسبه لأبي الطيب المتنبي فيه ثناء على الحاتمي بعد نقاش جرى بينهما في مسألة لغوية: «ياهذا مسلمة لك اللغة.»(٢٨) فأجابه الحاتمي: «كيف تسلمها، وأنت أبو عذرتها؟، ومن نصابها وسرها. . . . وما أحد أولى بأن يسأل عن لغته منك.»(٢٩) ويقول عنه الحاتمي: «ثم عمرت ما بيني وبين المتنبي. . . واستبان لي فضله وبراعته فحداني ذلك على كَتْبِ الأبيات من شعره.»(٣٠) وقال فيه أيضًا: «ومن فضيلته، وصفاء ذهنه، وجودة حذقه ما حداني إلى عمل الحاتمية.»(٣١)

وقد أشاد أبو بكر الخوارزمي بأبي الطيب المتنبي، فذكر أن أدواته كلها جيدة «نظمه ونثره، وعربيته ولغته،»(٣٢) كما أشاد به الخالديان حيث نصا على أنه كان «مفتنًا في علم

= البغدادي، *خزانة الأدب*، جـ٢، ص٣٥٦.

(٢٦) انظر في ذلك: شاكر، *المتنبي*، جـ٢، ص ص٢٩٤، ٣٢٠، ٣٢٤.

(٢٧) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٦٣.

(٢٨) أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي، *الرسالة الحاتمية*، منشورة مع كتاب: *الإبانة عن سرقات المتنبي* للعميدي، تحقيق إبراهيم الدسوقي البساطي، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ص٢٨٩، وانظر تعليق جعفر الكتاني على هذه الفقرة في مقدمته لكتاب محمد بن الحسن الحاتمي، *حلية المحاضرة في صناعة الشعر*، تحقيق جعفر الكتاني (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، ١٩٧٩م)، جـ١، ص٥٩.

(٢٩) الحاتمي، *الرسالة الحاتمية*، ص٢٨٩، وانظر: الحاتمي، *مناظرة*، ص٢٦٨.

(٣٠) الحاتمي، *مناظرة*، ص٢٦٩؛ وانظر: Bonebakker, *Hatimi*, p. 33.

(٣١) الحاتمي، *الرسالة الحاتمية*، ص٢٨٩؛ وانظر أيضًا: Bonebakker, *Hatimi*, pp. 30-31.

(٣٢) شاكر، *المتنبي*، جـ٢، ص٣٣٦.

العربية، والمعرفة بالشعر، وما يشكل من معاينة، ويدق من معرفته، كثير الرواية، جيد النقد.»(٣٣) فالخالديان في هذا الذي أوردناه من كلامهما ينصان على معرفة أبي الطيب المتنبي بالشعر، وبمعانيه الغامضة، كما ينصان على جودة نقده. ويؤيد هذا الذي ذكره الخالديان في حقه ما قاله ابن شرف القيرواني عنه من أن «علمه فسيح، وميزه صحيح، يروم فيقدر، ويدري ما يورد ويصدر.»(٣٤)

ويسبب معرفة المتنبي المتميزة بالشعر نجد كافورا الإخشيدي، عندما يجلس عشية كل عيد للاستماع إلى مدائح الشعراء فيه، يطلب من أبي الطيب المتنبي أن يبدي رأيه في شعر كل شاعر ينشده فيبدي أبو الطيب رأيه،(٣٥) وإذا كانت أقواله في شعر أولئك الشعراء لم تصل إلينا فإن هناك ملاحظات نقدية كثيرة لأبي الطيب المتنبي قد وصلت إلينا وهي تنبىء عن فهم عميق للشعر ولغته، وتكشف عن سعة ثقافة المتنبي اللغوية والنقدية. وكما سبق أن ذكرنا، فإن بعض هذه الملاحظات النقدية عبارة عن إجابات أجاب بها أبو الطيب المتنبي عن بعض منتقدي شعره، وبعضها الآخر يمثل أحكامًا أصدرها على شعر بعض الشعراء الذين تطرق للحديث عنهم. كما أن هناك ملاحظات تتضمن آراء لأبي الطيب المتنبي في بعض القضايا النقدية الرئيسة.

وتسهيلاً لعرض هذه الملاحظات سنصِّنفها في نقاط رئيسة:

١ ـ رأيه في الاستعمالات الشاذة والقليلة

لاحظ النقاد أن أبا الطيب المتنبي يخرج — أحيانًا — عن المألوف من استعمالات العرب في بعض شعره من مثل: تثنية مالم يشتهر عن العرب تثنيته، وإحلال الضمير المتصل محل المنفصل، وتشديد مالم يشتهر تشديده. وقد فاتحوا أبا المتنبي في تلك الاستعمالات فأجاب إجابات تنم عن تمرسه بأساليب العرب، وإحاطته الواسعة باستعمالاتهم. فقد عاب بعض اللغويين أبا الطيب في تثنيته كلمة «رماح» في قوله:

---

(٣٣) شاكر، *المتنبي*، جـ٢، ص٣٣٣.

(٣٤) محمد بن شرف القيرواني، *رسائل الانتقاد*، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، ط١ (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)، ص٣٥.

(٣٥) انظر ترجمة المتنبي للمقريزي، نشرها محمود شاكر ضمن كتابه *المتنبي*، جـ٢، ص٣٥١.

مضى بعدما التف الرماحان ساعة ... كما يتلقى الهدب في الرقدة الهدبا(٣٦)

بحجة أن كلمة «رماح» جمع، والجمع لايثنَّى، فأجابهم أبو الطيب بأن أبا النجم العجلي قد فعل الشيء نفسه حيث قال:

تبقلت من أول التبقل ... بين رماحي مالك ونهشل(٣٧)

وأبو الطيب المتنبي يريد رماح هؤلاء، ورماح هؤلاء فمن أجل هذا ثنى. (٣٨) وقد لقيت إجابة أبي الطيب المتنبي قبولا من بعض النقاد وبخاصة القاضي الجرجاني الذي نص على جواز التثنية عند النحويين في مثل ما أورده المتنبي إذا اختلفت الضروب والأجناس، وقد أكد الجرجاني أن المتنبي غير ملوم ما دام قد اتبع طريقة سار عليها أبو النجم وأشباهه من شعراء العرب الذين يُقتدَى بهم ويُقتفَى أثرهم. (٣٩)

وقد آخذ بعض النقاد أبا الطيب في إتيانه بالضمير المتصل بعد إلا في قوله:

ليس إلاك يا علي همام ... سيفه دون عرضه مسلول(٤٠)

---

(٣٦) أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري (منسوب إليه)، *التبيان في شرح الديوان*، ضبطه وصححه مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي (بيروت: دار المعرفة. د. ت.)، جـ١، ص٦٤.

(٣٧) هذه هي رواية البيت كما ورد في *ديوان أبي النجم العجلي*؛ أما في كتاب *الوساطة* للقاضي الجرجاني فقد رُوي البيت كما يلي:

تنقلت من أول التنقل ... بين رماحي مالك ونهشل

انظر: أبو النجم الفضل بن قدامة العجلي، *ديوان أبي النجم العجلي*، صنعه وشرحه علاء الدين أغا (الرياض: النادي الأدبي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ص١٧٥-١٧٦؛ القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني، *الوساطة بين المتنبي وخصومه*، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٦م)، ص٤٤٩.

(٣٨) ابن جني، *الفسر*، جـ١، ص١٧١.

(٣٩) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص ص٤٤٩-٤٥٠؛ ابن جني، *الفسر*، جـ١، ص ص١٧١-١٧٢؛ وانظر أيضًا: أبو علي الفارسي، *كتاب الشعر*، تحقيق وشرح محمود محمد الطناحي، ط١ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، جـ١، ص ص١٤٩، ١٥٠، ١٥١.

(٤٠) العكبري، *التبيان*، جـ٣، ص١٥٦.

وفي قوله:

لم تر من نادَمَتْ إلاَّكا لا لِسِوَى وُدِّكَ لي ذاكا⁽⁴¹⁾

وقالوا إن حق الضمير أن يكون منفصلاً بعد إلاَّ حيث إنَّ هذا هو الظاهر في قياس النحو، وهو المشهور عن العرب، وبذلك جاء القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾. ⁽⁴²⁾

وقد رد أبو الطيب المتنبي على نقاده بأنه ما خرج عن سنة العرب فهم قد جاؤا بالضمير المتصل بعد إلاَّ، واستشهد ببيت رواه الفرّاء وهو قول الشاعر:

فما نبالي إذا ما كنت جارتنا ألاّ يجاورنا إلاك ديار⁽⁴³⁾

فإلاَّ في هذا البيت قد وليها ضمير متصل. وهذا البيت قد رواه ثقة من الثقات، وأبو الطيب لم يسلك إلا طريقًا سلكه شعراء عرب قبله فلا لوم عليه في ذلك كما يرى القاضي الجرجاني. ⁽⁴⁴⁾

وقد آخذ النقاد أبا الطيب المتنبي في قوله:

أُحادٌ أم سُداس في أحاد لييلتنا المنوطة بالتناد⁽⁴⁵⁾

حيث استخدم كلمة «سداس» وهذا في زعمهم غير مروي عن العرب، وإنما المروي عنهم أحاد، وثناء، وثلاث، ورباع، وعشار. وقالوا إن هذه أسماء معدولة ينبغي الاقتصار فيها على السماع، ولا يجوز فيها القياس. ⁽⁴⁶⁾

---

(٤١) العكبري، *التبيان*، جـ٢، ص٣٨٣.

(٤٢) سورة الإسراء، آية ٦٧؛ وانظر: القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٧.

(٤٣) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٧، وانظر في هذا البيت ورواياته، والاستشهاد به: بهاء الدين عبدالله بن عقيل، *شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك*، ومعه كتاب *منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل* لمحمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت: دار العلوم الحديثة، د.ت.)، جـ١، ص ص٨٩-٩١.

(٤٤) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٧.

(٤٥) العكبري، *التبيان*، جـ١، ص ص٣٥٣-٣٥٤؛ الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٩٨-٩٩.

(٤٦) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص ص٩٨-٩٩، ٤٥٧.

وقد رد المتنبي على هؤلاء النقاد «بأنه قد جاء عن العرب خماس، وسداس إلى عشار، حكاه أبو عمرو الشيباني، وابن السكيت، وذكره أبو حاتم في كتاب *الإبل*، وزعم أبو عبيدة في المجاز أنه لا يعلمهم قالوا فوق رباع . . . وقد جاء ذلك في الشعر. قال الكميت:

فلم يستريثوك حتى رميـ ـت فوق الرجال خصالاً عُشارا

(وقال) آخر:

ضربت خماس ضربة عبشمي أدار سداس أن لا يستقيما

وقد نسبت العرب إلى كل ذلك فقالوا: خماسي وسداسي وعشاري، قال أبو النجم:

فوق الخماسي قليلاً يفضله.»(٤٧)

---

(٤٧) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص ص٤٥٧ـ٤٥٨؛ أبو الطيب المتنبي، *ديوان أبي الطيب المتنبي*، تحقيق عبدالوهاب عزام (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٤م)، ص ص٧٦ـ٧٧. وسنرمز لهذا المصدر فيما يأتي من تعليقات باسم «الديوان.» وانظر: *ديوان أبي النجم العجلي*، ص١٦٦؛ محمد بن جعفر القزاز القيرواني، *كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة*، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٧١م)، ص ص٢٨ـ٣٠؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، *الغيث المسجم في شرح لامية العجم*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، جـ٢، ص ص٨٠ـ٨١.

هذا ولم أعثر على ما نسبه المتنبي إلى أبي عمرو الشيباني وابن السكيت فيما اطلعت عليه من مؤلفاتهما، ولكني عثرت في كتاب شرح *أدب الكاتب* للجواليقي على ما يؤيد كلام المتنبي في نسبة هذا الرأي إليهما. فقد قال الجواليقي معلقًا على قول ابن قتيبة في *أدب الكاتب*: «ويقال «أحاد» و«ثناء» و«ثلاث» و«رباع» كل ذلك لا ينصرف، ولم نسمع فيما جاوز ذلك شيئًا على هذا البناء غير قول الكميت:

. . . . خصالاً عشارا»

«وقول ابن قتيبة: ولم نسمع فيما جاوز رباع شيئًا غير قول الكميت، فإنه قد رَوَى لنا يحيى بن علي عن هلال بن المحسن عن ابن الجراح عن ابن الأنباري عن أبيه عن الرستمي عن ابن السكيت أنه قال: قال أبو عمرو يقال: أحاد، وثناء، وثلاث، ورباع، وخماس وكذلك إلى العشرة.» انظر: عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *أدب الكاتب*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٣ (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م)، ص٤٥٨؛ أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، شرح *أدب الكاتب* (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.)، ص٢٨٨. وانظر =

وقد عاب النقاد أبا الطيب أيضًا في أنه صَغَّر الليلة ثم استطالها في قوله:

أحاد أم سداس في أحاد لييلتنا المنوطة بالتناد(٤٨)

وقد أجاب على هذا الانتقاد بأن ذلك التصغير هو تصغير التعظيم، والعرب تفعل ذلك كثيراً وممن فعله لبيد في قوله:

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تَصْفَرُّ منها الأنامل(٤٩)

والحباب بن المنذر الأنصاري في مقولته:

أنا عذيقها المرجب وجذيلها المحكك(٥٠)

وشاعر آخر حيث يقول:

يا سلم أبقاك البريق الوامض والديمُ الغادية الفضافض(٥١)

= أيضًا: أبو الفتح عثمان بن جني، *الخصائص*، حققه محمد علي النجار، ط٢ (بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر، د.ت.)، جـ٣، ص١٨١؛ البغدادي، *خزانة الأدب*، جـ١، ص ص١٧٠-١٧١.

أما عن قول المتنبي «وذكره أبو حاتم في *كتاب الإبل*،» فلم أعثر على هذا الكتاب ولعله أن يكون من بين ما لم يصل إلينا من مؤلفات أبي حاتم السجستاني. انظر: أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني، *كتاب الفرق*، منشور ضمن: *كتابان في الفرق* لأبي حاتم السجستاني، وثابت بن أبي ثابت، تحقيق حاتم صالح الضامن، ط١ (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص١٧.

وأما ما نَسَبَهُ المتنبي إلى أبي عبيدة في *كتاب المجاز* فإنه مطابق لما أورده أبو عبيدة. انظر: أبو عبيدة معمر بن المثنى، *مجاز القرآن*، تحقيق محمد فؤاد سزكين (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.)، جـ١، ص ص١١٥-١١٦.

(٤٨) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٩٨-١٠٢؛ القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص ص٩٩، ٤٥٨؛ الأصفهاني، *الواضح*، ص ص٣٨-٤١.

(٤٩) إحسان عباس (محقق)، شرح *ديوان لبيد بن ربيعة العامري*، ط٢ (الكويت: وزارة الإعلام، ١٩٨٤م)، ص٢٥٦؛ القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٨؛ الأصفهاني، *الواضح*، ص٤١.

(٥٠) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص ص٤٥٨-٤٥٩.

(٥١) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٩؛ وانظر أيضًا: أبو الحسن علي بن سيده، شرح *مشكل شعر المتنبي*، تحقيق محمد رضوان الداية (دمشق: دار المأمون للتراث، ١٩٧٥م)، ص ص٧٣-٧٤؛ الصفدي، *الغيث المسجم*، جـ٢، ص ص٨٠-٨١.

وقد ناقش القاضي الجرجاني احتجاج أبي الطيب المتنبي في هذا الموطن، فذكر أن القول بأن اللفظ قد يأتي مُصَغَّرا والمقصود تكثير المعنى غير منكر، وقد جاء ذلك كثيرًا في كلام العرب، ولكن مع هذا فإن في احتجاج أبي الطيب المتنبي خللاً؛ لأن «دويهية» في البيت الذي احتج به المتنبي.

> تصغير في المعنى واللفظ، وكذلك جذيلها المحكك، لأن هذا الجذل لا يكون إلا لطيف الجرم، وإنما هو جذم من النخلة تحتك به الإبل، وكلما زاد تحكك الإبل به زاد لطفًا وصغرًا وضئولة، وإنما وجه القول في هذا أن مِنَ التصغير ما يكون جاريًا على طريق الاستهانة والتحقير، ومنه ما يراد به الصغر واللطافة، فأنت إذا قلت: جاءني رُجَيل لم تبال بصغر جسمه، وتفاوت خلقه، وقصر قامته. إذا أردت تحقير شأنه والإهوان به، ومتى أردت الإخبار عن ضئولته، ودمامة خَلْقه لم تعرج على حاله، ولم تفكر في محله. . . وَذِكْرُ لبيد «الدويهية» على لفظ التصغير من باب اللطافة دون النكاية، وقول أبي الطيب «لبيلتنا» خارج مخرج الذم والهجو، ثم قد أزال الالتباس، وأفصح عن المراد بقوله: «المنوطة بالتناد» إذ قد بين أنه لم يرد قصر مدتها، ولا قرب انقضائها.
>
> فأما قول أبي الطيب: إني لم أرد «بالتناد» القيامة، وإنما أردت مصدر تنادى القوم، وعنيت أنها منوطة بها أهم منه فهو أعلم بقصده، وأعرف بنيته، غير أن نسق الكلام يشهد عليه، ومن تأمله عرف أنه بأن يراد به القيامة أشبه، ولا عيب فيه لو أراده، إنما هو ضرب من الإفراط قد استعمله الشعراء.(٥٢)

وعاب بعض اللغويين أبا الطيب المتنبي في استعماله كلمة «تُرُنْج» في قوله:

شديد البعد من شرب الشمول ترنج الهند أو طلع النخيل(٥٣)

وقالوا إن المعروف عند الفصحاء من العرب «الأترج» وأما «ترنج» فإنه مما تغلط فيه العامة.(٥٤) وقد أجاب أبو الطيب عن هذا الاعتراض بأنه «يقال: أترجة، وترنج، حكاها

---

(٥٢) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٩؛ وقارن مع: أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني، *كتاب النخل*، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط١ (الرياض: دار اللواء، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص٨٩.

(٥٣) المتنبي، *الديوان*، ص٣٣٣.

(٥٤) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٧٠، وقد قيل إن الذي اعترض على استعمال كلمة «ترنج» هو ابن خالويه؛ انظر: المتنبي، *الديوان*، ص٣٣٣؛ العكبري، *التبيان*، جـ٣، ص٩١.

أبو زيد، وذكرهما ابن السكيت في *أدب الكاتب*.»⁽⁵⁵⁾ ونحن لا نعرف لابن السكيت كتابًا عنوانه *أدب الكاتب*، وإنما *أدب الكاتب* لابن قتيبة وقد ورد فيه بالفعل ما نسبه المتنبي إلى أبي زيد. يقول ابن قتيبة: «وهي الأُتْرُجَّة والأَتْرُج، وأبو زيد يحكي تُرُنْجَة، وتُرُنج أيضًا»⁽⁵⁶⁾ وقد نسب هذا القول إلى أبي زيد أيضًا صاحب *التبيان*.⁽⁵⁷⁾ وقال أبو العلاء المعري «الترنج جمع ترنجة، وهي لغة، والأصح: الأترج، والأترجَّة.»⁽⁵⁸⁾ أما ابن السكيت فقد قال: «هي الأُتْرُجَّةُ، والأُتْرُنْجُ لغة»⁽⁵⁹⁾ ولم يذكر شيئًا عن «تُرُنْج» اللهم إلا أن يكون في كتاب لم يصل إلينا.

٢ ـ اهتمام المتنبي بالمعنى والاعتراضات التي نشأت عن ذلك

وإذا تركنا التخريجات اللغوية التي دافع بها أبو الطيب المتنبي عن شعره إلى جانب آخر من جوانب ثقافته النقدية، وهو التعليلات الأدبية التي أبداها في الدفاع عن بعض أبياته، فسنجد كثيرًا من التخريجات التي تنبىء عن مهارة فائقة في التعامل مع اللغة، وإدراك واسع لمناحيها المتعددة، ولا نستطيع في هذا البحث المختصر أن نلم بكل تخريجات أبي الطيب الأدبية، ولهذا فإننا سنكتفي ببعض النماذج التي تكشف عن هذا الجانب من نواحي ثقافته.

ورد في يتيمة *الدهر* للثعالبي، وفي عدد من المصادر الأدبية الأخرى أن سيف الدولة الحمداني استنشد يومًا أبا الطيب المتنبي قصيدته التي أولها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وكان معجبًا بها، كثير الاستعادة لها، فاندفع أبو الطيب المتنبي ينشدها فلما بلغ قوله فيها:

---

(٥٥) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٧٠؛ المتنبي، *الديوان*، ص ص٣٣٣-٣٣٤؛ العكبري، *التبيان*، جـ٣، ص ص٩٠-٩١.

(٥٦) ابن قتيبة، *أدب الكاتب*، ص٢٩٠.

(٥٧) العكبري، *التبيان*، جـ٣، ص ص٩٠-٩١.

(٥٨) أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري، شرح ديوان *أبي الطيب المتنبي* (معجز أحمد)، تحقيق عبدالمجيد دياب (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، جـ٣، ص٢٨٩.

(٥٩) أبو يوسف يعقوب بن السكيت، *إصلاح المنطق*، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧م)، ص١٧٨.

وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً   ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال: قد انتقدنا عليك هذين البيتين، كما انتُقِدَ على امرىء القيس بيتاه:

كأني لم أركب جوادًا للذة   ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل   لخيلي كري كرة بعد إجفال

وبيتاك لا يلتئم شطراهما، كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين، وكان ينبغي لامرىء القيس أن يقول:

كأني لم أركب جوادًا ولم أقل   لخيلي كري كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروي للذة   ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال

ولك أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف   ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال: أيد الله مولانا، إن صح أن الذي استدرك على امرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك؛ لأن البزاز يعرف جملته، والحائك يعرف جملته وتفاريقه؛ لأنه هو الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسًا، وعينه من أن تكون باكية قلت:

ووجهك وضاح وثغرك باسم

لأجمع بين الأضداد في المعنى، وإن لم يتسع اللفظ لجميعها. فأُعْجِبَ سيف الدولة بقوله، ووصله بخمسين دينارًا من دنانير الصلات، وفيها خمسمائة دينار.(٦٠)

---

(٦٠) الثعالبي، *يتيمة الدهر*، جـ١، ص ص٣٣-٣٤؛ وانظر القصة بهذا المضمون عند علي بن أحمد الواحدي، *ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح الواحدي*، تحقيق فريدرخ ديتريصي (برلين، ١٨٦١م)، ص٥٥٢؛ أبو العلاء المعري، *شرح ديوان أبي الطيب المتنبي*، جـ٣، ص٤٢٨؛ العكبري، *التبيان*، جـ٣، ص٣٨٦؛ المتنبي، *الديوان*، ص ص٣٧٧-٣٧٨؛ ضياء الدين بن الأثير، *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط١ (القاهرة: مكتبة نهضة

وقد وردت القصة في كتاب *المنزع البديع* للسجلماسي برواية مختلفة، فالذي اعترض على أبي الطيب المتنبي لم يكن سيف الدولة وإنما هو واحد ممن حضروا مجلسه وقت إنشاد المتنبي قصيدته ولم يُصَرَّح باسمه، وقد لقي اعتراضه قبولاً من الحاضرين، وتقول هذه الرواية: إن المتنبي فكر في الجواب على الاعتراض حتى وجده وذلك بالاستشهاد ببيتي امرىء القيس السابقين، ولكن المعترض، اعترض على بيتي امرىء القيس بما هو موضّح في الرواية السابقة «فالتبس الأمر على سيف الدولة، وخجل المتنبي، ووجم، وأدخل رأسه تحت ثوبه، وأخذ يفكر في الجواب حتى عثر عليه، وأُلْهِمَ إليه، فأخرج رأسه من تحت الثوب، وقال للمنتقد: الله تعالى أصدق منك حين يقول: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ (طه، ١١٨-١١٩) فأتى بالجوع مع العُرْي، وأتى بالظمأ مع الضَّحْو. فقال سيف الدولة: الله أكبر، هذه والله الحجة البالغة، صدق الله وهو أصدق القائلين. قال: فانقطع المنتقد، ووجم، وفلج عليه أبو الطيب.»⁽٦١⁾ وقد أتبع السجلماسي روايته هذه بجواب أبي الطيب المتنبي الذي سبق أن ذكره الثعالبي في *يتيمة الدهر*.

مصر، ١٩٥٩م - ١٩٦٢م)، جـ٣، ص ص١٦٥-١٦٦؛ حازم القرطاجني، *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٢ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١م)، ص ص١٥٩-١٦١؛ البديعي، *الصبح المنبي*، ص ص٨٤-٨٥؛ يحيى بن حمزة العلوي، *كتاب الطراز* (طهران: مؤسسة النصر، د.ت.)، جـ٣، ص ص١٤٧-١٤٩؛ وانظر أيضًا: أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي ابن البناء المراكشي العددي، *الروض المريع في صناعة البديع*، تحقيق رضوان بنشقرون (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ١٩٨٥م)، ص ص١١٠-١١١.

هذا وقد ذكر الثعالبي أن كل دينار من دنانير الصِّلات يعدل عشرة مثاقيل، وأنه قد طُبِعَ عليها اسم سيف الدولة وصورته؛ انظر: الثعالبي، *يتيمة الدهر*، جـ١، ص٣٢.

(٦١) أبو محمد القاسم السجلماسي، *المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع*، تحقيق علال الغازي، ط١ (الرباط: مكتبة المعارف، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م)، ص ص٥٢١-٥٢٤. هذا وقد ورد النقد المُوجه إلى بيتي امرىء القيس في كتاب *العمدة* لابن رشيق منسوبًا إلى رجل بغدادي يُعْرَفُ بالمُنْتَجَب، لا يسلم من نقده أحدٌ من القدماء والمحدثين. يقول ابن رشيق: إن سيف الدولة قد أُنشد يومًا بيتي امرىء القيس فقال المُنْتَجَب: إن الشاعر «قد خالف فيهما وأفسد، لو قال:

كأني لم أركب جوادًا ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة ولم أتبطن كاعبًا ذات خلخال =

وإذا تركنا الخلاف حول تفاصيل القصة جانبًا، وذهبنا نتأمل كلام أبي الطيب المتنبي في دفاعه عن شعره أمام منتقده، سواءً أكان سيفَ الدولة أم غيره، وجدنا المتنبي يفتتح دفاعه بكلام يبدو للوهلة الأولى منطقيًّا ومقنعًا فهو يقول: «إن صح أن الذي استدرك على امرىء القيس هذا كان أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأتُ أنا، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك؛ لأن البزاز يعرف جملته، والحائك يعرف جملته وتفاريقه؛ لأنه هو الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية.»(٦٢)

= لكان قد جمع بين الشيء وشكله، بذِكرِ الجواد والكر في بيت، وذكر الخمر والنساء في بيت، فالتبس الأمر بين يدي سيف الدولة، وَسَلَّموا له ماقال فقال رجل ممن حضر: ولا كرامة لهذا الرأي، الله أصدق منك حيث يقول: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾. فأتي بالجوع مع العُري، ولم يات به مع الظمأ، فَسُرَّ سيف الدولة، وأجازه بصلة حسن.» انظر: الحسن بن رشيق القيرواني، *العمدة في محاسن الشعر وآدابه*، تحقيق محمد قرقزان، ط١ (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، جـ١، ص ص٤٤٣-٤٤٤.

ففي رواية ابن رشيق لانجد ذكرًا لبيتي المتنبي، بل اقتصر الحديث على بيتي امرىء القيس. كما أننا لا نجد نصًّا على اسم الرجل الذي رد على المُنتجَب، وإنما هو «رجل ممن حضر.» وتذكر الرواية أن سيف الدولة قد سره دفاع هذا الرجل عن امرىء القيس، فكانت النتيجة أن أجازه سيف الدولة بجائزة حسنة. ورواية ابن رشيق على اختصارها تتفق مع رواية السجلماسي في عدة عناصر: فالذي اعترض على بيتي امرىء القيس لم يكن سيف الدولة وإنما هو رجل حضر مجلسه، وقد صرح ابن رشيق باسمه وببلده، فهو يعرف بالمُنْتَجَب، وهو بغدادي النسبة، وهو صاحب حجة قوية لا يكاد يسلم منه أحد. والذي تصدى للرد على نقد المنتجب لم يُسَمَّ في كتاب *العمدة* وإنما هو «رجل ممن حضر،» وقد صُرِّحَ باسمه في كتاب *المنزع البديع* حيث قيل إنه أبو الطيب المتنبي. والاستشهاد الذي استشهد به هذا الرجل (المتنبي) وهو الآيتان من القرآن الكريم قد وردتا في المصدرين كليهما، والنتيجة التي أدى إليها الاستشهاد وهي سرور سيف الدولة بهذه الحجة ثم إجازته لموردها قد وردت أيضًا في المصدرين كليهما. يبدو أن ابن رشيق والسجلماسي قد استقيا مادة هذه القصة من مصدر واحد، ولكن ابن رشيق أوردها مختصرة، وأوردها السجلماسي مفصلة.

وأما بخصوص الخلاف حول الرَّجل الذي انتقد أبا الطيب المتنبي، وفيما إذا كان سيف الدولة، أو رجلاً ممن حضروا مجلسه، فإن هذا الخلاف ليس بأمر ذي بال بالنسبة لموضوعنا، لأن الذي يهمنا هو جواب أبي الطيب المتنبي على الذي انتقده، وهذا الجواب قد تواترت به الروايات.

(٦٢) الثعالبي، يتيمة *الدهر*، جـ١، ص٣٤.

فالمتنبي هنا يوحي بأن فهم الشعراء لأسرار العملية الشعرية مقدم على فهم غيرهم بمن في ذلك النقاد، لأن الشعراء هم الذين عانوا محنة المخاض الشعري، ففكروا بعمق في ألفاظهم، وصورهم، وتأليف أبياتهم، وربط أجزائها ببعض. فهم لهذا يعرفون دقائق أشعارهم وجملتها، ويعرفون ما ظهر منها وما بطن. أما النقاد فهم — كما يفهم من كلام المتنبي — يُشبهون البزازين الذين يَتَّجِرُونَ في الثياب، فهم يعرفون جملتها ومظاهرها الخارجية. أما دقائق نسجها، والمادة التي صنعت منها تلك الثياب، فأمر خارج عن طبيعة عملهم، لأن ذلك لا يدركه إلا النساج أو الغازل نفسه.

إن كلام أبي الطيب هذا ربما ينطبق على الناقد غير المدرب؛ أما الناقد المدرب، فإنه ينتظر منه أن يكون عارفًا من أمر الشعر، وخفاياه، وأسراره أكثر مما يعرفه الشاعر نفسه. والمسألة التي ألمح إليها المتنبي هنا — وهي مسألة الصراع بين المبدعين والنقاد — مسألة قديمة لها في تراثنا شواهد وقصص. فالشعراء بطبيعة الحال يريدون أن يَكُفُّوا أيدي النقاد عن التعرض لنقد أشعارهم مهددينهم بالهجاء تارة، كما أُثِرَ عن الفرزدق وبشار،(٦٣) ومقللين من معرفتهم بالشعر إذا هي قُورِنَتْ بمعرفة الشعراء أنفسهم كما يبدو لنا من كلام المتنبي هنا.(٦٤)

أتراه يُشْتَرَطُ في الناقد أن يكون شاعرًا، وأن تكون شاعريته أقوى من الشاعر الذي ينتقده؟ بالطبع لا يشترط ذلك، وكثير من النقاد الكبار في تراثنا النقدي لم يكونوا شعراء، ومن كان منهم شاعرًا فإنه لم يكن من المُفْلِقِين، ومع ذلك نقدوا شعر امرىء القيس، وشعر المتنبي نفسه، وأشعار غيرهما من فحول الشعراء نقدًا موضوعيًّا لاشبهة فيه. وقضية التشكيك في إدراك غير الشاعر لأسرار الشعر قضية حاضرة في ذهن كل شاعر ولم تكن من اختراع المتنبي، فالبحتري قبله قد شكك في معرفة اللغوي ثعلب، صاحب كتاب *قواعد*

---

(٦٣) انظر: أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، *الموشح*، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٦٥م)، ص ص١٥٦-١٥٧، ١٥٩، ١٦٥-١٦٦، ٣٨٤-٣٨٦.

(٦٤) انظر أيضًا ما قاله ابن الرومي في عَلي بن سليمان الأخفش في: علي بن العباس بن جريج، *ديوان ابن الرومي*، تحقيق حسين نصار (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٤م)، جـ٢، ص ص٧٤١-٧٤٥؛ وانظر: عبدالحكيم راضي، *نظرية اللغة في النقد العربي* (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٠م)، ص ص٩-١٤.

الشعر، بأسرار الشعر وخفاياه بِحُجَّة أنه لا يعرف الشعر إلا من دفع في مسلكه إلى مضايقه، وانتهى إلى ضروراتـه، وقبلهما بشار بن برد قد أنكر معرفة يونس بن حبيب، وأبي عبيدة بالشعر بحجة أن الذي يعرف الشعر إنما هو من يضطر إلى أن يقول مثله.(٦٥)

وفي مقـابـل أصـوات الاحتجاج التي رفعها الشعراء في وجوه النقاد، نجد أقوالاً لمبدعين: شعراء وكتاب يعترفون فيها بجهود النقاد وإن لم يكونوا مبدعين. فالكاتب الشاعر إبراهيم بن العباس الصولي الذي كان يكتب الرسائل للمعتصم، والواثق، والمتوكل يقول: «المتصفـح للكتاب أبصر بمواقع الخلل من منشئه.»(٦٦) وابن رشيق القيرواني وهو شاعر وناقد يقول: «وقد يميز الشعر من لا يقوله، كالبزاز يميز من الثياب ما لم ينسجه، والصيرفي يخبر من الدنانير ما لم يسبكه، ولا ضربه، حتى إنه ليعلم مقدار ما فيه من الغِشّ فينقص قيمته.»(٦٧)

وإذا كنا لم نوافق المتنبي في موقفه من الناقد المدرب فإننا نوافقه في تعليله لسلامة بيتي امرىء القيس من العيب، وسلامة بيتيه كذلك، فقد وُفِّقَ المتنبي حقًّا إلى إدراك سر التأليف في بيتي امرىء القيس، وهو ما عجز عن إدراكه بعض النقاد، فابن طباطبا العلوي مثلاً يعيب بيتي امرىء القيس المشار إليهما بحجة أن مصراعيهما غير متناسبين ويقول: إنه لو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر لكان أفضل، وأجود في سبك الشعر.(٦٨)

---

(٦٥) انـظر في ذلـك: أبـو بكـر محمد بن الطيب الباقلاني، *إعجاز القرآن*، تحقيق أحمد صقر، ط٤ (القـاهـرة: دار المعارف، د. ت.)، ص ص١١٦-١١٧؛ عبدالقاهر الجرجاني، *كتاب دلائل الإعجـاز*، تحقيق محمـود محمـد شاكـر (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص ص٢٥٢-٢٥٣؛ ابن رشيق، *العمدة*، جـ٢، ص٧٣٤؛ أبو طاهر محمد بن حيدر البغدادي، *قانـون البـلاغـة*، تحقيق محسن غياض عجيل، ط١ (بـيروت: مؤسسـة الـرسـالـة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص ص١٤٧-١٤٨.

(٦٦) تقي الدين أبو بكر بن علي بن حجة الحموي، *ثمرات الأوراق*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١ (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧١م)، ص٣٣٦؛ ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، جـ١، ص ص٤٤-٤٧.

(٦٧) ابن رشيق، *العمدة*، جـ١، ص٢٤٠.

(٦٨) أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، *كتاب عيار الشعر*، تحقيق عبدالعزيز بن ناصر المانع (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ص٢٠٩-٢١٠.

أما المتنبي فقد ألمح إلى أن امرأ القيس قد ذكر الخيل مرتين لغرض يريد إبرازه وهو أن يشير إلى تنوع المجالات التي تستخدم فيها الخيل: فهي أحيانًا تستخدم لِلَّذة والمتعة، كما هو الحال عندما تستخدم في الصيد أو في تقديم بعض الألعاب مثلاً، وهنا حسن أن يؤتي بها مقرونة مع جانب آخر من جوانب اللذة وهو وصال المرأة. وتستخدم الخيل في مواطن الجد، والكر والفر، وهنا نجد امرأ القيس يقرنها مع موضوع يناسب هذا الجانب وهو مجاهدة النفس في إنفاق المال من أجل شراء الخمر للأضياف.

وقد وُفّق المتنبي في دفاعه عن بيتيه حيث أشار إلى أنه عندما ذكر الموت في الشطر الأول من البيت الأول أتبعه بذكر الردى في البيت الثاني طلبًا للمجانسة في المعنى، ثم جاء بالشطر الثاني كله مؤكدًا ما تضمنه الشطر الأول، إذ إن المتنبي قد صور سيف الدولة في وقوفه في ذلك المعترك الرهيب، الذي لا يقفه إلا موقن بالهلاك، بصورة من يحلّ في جفن الردى. وقد صور المتنبي الردى في صورة الكائن الحي الذي غلبه النعاس فأطبق جفنه على ما بداخل عينه فاحتواه احتواءً لا فكاك منه. ولكن بما أن سيف الدولة قد نجا من الموت فإن المتنبي قد جعل الردى، ذا الجفن المطبق، نائمًا فكأنه غفل عن سيف الدولة فمن هنا نجا منه.

وعندما صور المتنبي في البيت حالةَ الأبطال المنهزمين، المثخنين بالجراح، الذين تعلو وجوههم الكآبة، حَسُنَ أن يقابل تلك الصورة بصورة مضادة لها وهي صورة سيف الدولة بوجهه المشرق، وثغره المبتسم رغم فداحة الخطب وهول الفاجعة. فنحن نرى هنا كيف استفاد المتنبي من الجمع بين المتشابهات في البيت الأول، ومن الجمع بين المتنافرات في البيت الثاني. (٦٩)

---

(٦٩) انظر، الواحدي، *ديوان أبي الطيب المتنبي*، ص٥٥٢؛ العكبري، *التبيان*، جـ٣، ص ص٣٨٦-٣٨٧؛ ابن رشيق، *العمدة*، جـ١، ص ص٤٤٣-٤٤٥؛ السجلماسي، *المنزع البديع*، ص ص٥٢٠-٥٢٤؛ وانظر أيضًا: عبدالقاهر الجرجاني، *أسرار البلاغة*، ص ص١٣٦-١٣٩؛ العددي، *الروض المريع*، ص ص١١٠-١١١؛ عبدالله محمد الغذامي، «من المشاكلة إلى الاختلاف: العمودية والنصوصية في النقد العربي،» منشور ضمن كتاب *قراءة جديدة لتراثنا النقدي* (جدة: النادي الأدبي الثقافي، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م)، جـ٢، ص ص٦٤٣-٦٦٤.

وشبيه بهذا الذي وُجه إلى أبي الطيب المتنبي من نقد ورده عليه ما رواه ابن فورجة من أن بعض المعترضين عليه عاب عليه قوله:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

حيث قال له المعترض: «خالفت بين سبك المصراعين، وضعت في المصراع الأول إيجابًا بعده نفي، يريد صبرت أو لم تصبر، ووضعت في المصراع الثاني نفيًا بعده إيجاب، وهذا مخالف لما يستحسن من صنعة الشعر. فقال في الجواب: لئن كنت قد خالفت فيهما من حيث اللفظ، فقد وافقت بينهما من ناحية المعنى. وذلك أن من صبر لم يجر دمعه، ومن لم يصبر جرى دمعه.»(٧٠) وقد أعجب ابن فورجة بجواب المتنبي فوصفه بأنه «جواب جيد، وخطابة سليمة.»(٧١)

واهتمام أبي الطيب المتنبي بالمعنى، وحرصه عليه، دفعه في بعض الأحيان إلى الخروج على المألوف من استعمالات العرب، سواءً أكان ذلك فيما يتعلق ببعض قواعد اللغة، أو الأعراف الاجتماعية. ومن نماذج هذا الإلحاح على الجانب المعنوي ما نجده في البيت الذي يخاطب به كافورا حيث يقول:

وأنت الذي رَبَّيتَ ذا الملك مُرْضَعًا وليس له أمٌّ سواك ولا أب(٧٢)

فقد ذكر ابن جني أن الوجه في ذلك أن يقال: «وأنت الذي ربى ذا الملك، ليعود ضمير «الذي» إليه على لفظ الغيبة؛ لأن «الذي» إنما وقع في الكلام توصلا إلى وصف المعارف بالجُمَل، فكأنه قال: أنت الذي رَبَّى، أو الإنسانِ الذي رَبَّى. ولكن جاز الذي ربيت لما تقدم «أنت» فحمله على المعنى وهو ضعيف مع ذلك.»(٧٣) وأضاف ابن جني: «لولا أننا سمعناه من الثقة لرددناه ولم نقبله، على أن مثله في الشعر كثير.»(٧٤) وقد ذكر ابن جنى

---

(٧٠) محمد بن أحمد بن فورجة، *الفتح على أبي الفتح*، تحقيق عبدالكريم الدجيلي، ط٢ (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧م)، ص١٥٥؛ الواحدي، *ديوان أبي الطيب المتنبي*، ص٧٣٢.

(٧١) ابن فورجة، *الفتح علي أبي الفتح*، ص١٥٥.

(٧٢) المتنبي، *الديوان*، ص٤٦٦.

(٧٣) ابن جني، *الفسر*، جـ٢، ص ص٣٤-٣٥.

(٧٤) ابن جني، *الفسر*، جـ٢، ص ص٣٥-٣٧.

كلَّم المتنبي أكثر من مرة في هذا الموضوع فأجاب المتنبي: «بأنه إذا أعاد الذِّكْرَ على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يَرُدَّه على لفظ الغيبة، لأنه لو قال:

وأنت الذي ربى ذا الملك

لعاد الضمير من «رَبَّى» على لفظ الغيبة، وإذا قال: «ربيت» فقد خاطبه فكان أبين.»(٧٥) وعقب ابن جني على جواب المتنبي بقوله: «ولعمري إنه لكما قال ولكن الحمل على المعنى عندنا لا يسوغ في كل موضع ولا يحسن، والوجه ما ذكرته لك وله، وفي شعره مواضع كثيرة مثل هذا، وإلى ما حكيت عنه من أنه أمدح كان يذهب.»(٧٦)

وقد آخَذَ الشاعرُ الناقدُ سعد بن محمد الأزدي المعروف بالوحيد، ابنَ جني في تسليمه للمتنبي بأن إجراء الكلام على طريق الخطاب أمدحُ من إجرائه على طريق الغيبة، وادعى بأن ذلك سهو من ابن جني، إذ إن إجراء الكلام على المخاطبة أبينُ، ولكنه ليس بأمدح «لأن خطاب الغيبة هو خطاب السلاطين وهو أجلّ.»(٧٧)

٣ ـ السرقات الشعرية

اهتم كثير من النقاد الذين تعقبوا شعر أبي الطيب المتنبي بسرقاته من الشعراء قبله، فقد أَلَّفَ الحاتمي *الرسالة الموضحة* التي ضمنها مآخذه على شعر أبي الطيب بما في ذلك سرقاته، وألف كذلك *الرسالة الحاتمية الثانية* التي رد فيها كثيرًا من حكم المتنبي إلى أقوال أرسطو،(٧٨) وألف الصاحب بن عباد *الكشف عن مساوىء المتنبي*، وألف ابن وكيع التنيسي كتاب *المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره*.(٧٩) وقد تحدث

---

(٧٥) ابن جني، *الفسر*، جـ٢، ص٣٧.

(٧٦) ابن جني، *الفسر*، جـ٢، ص ص٣٧ـ٣٨. وفيما يتعلق بحمل الكلام على المعنى، انظر على سبيل المثال: ابن جني، *الخصائص*، جـ٢، ص ص٤١١ـ٤٣٥؛ القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص ص٤٤٧ـ٤٤٨؛ وانظر أيضًا: إحسان عباس، *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*، ط٢ (بيروت: دار الثقافة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص٣٩٤.

(٧٧) انظر: ابن جني، *الفسر*، جـ٢، ص٣٨.

(٧٨) نُشِرت ضمن كتاب *التحفة البهية والطرفة الشهية* (القسطنطينية: مطبعة الجوائب، ١٣٠٢هـ)، ص ص١٤٤ـ١٥٩. وهناك نشرات أخرى لها، وهذه الرسالة تختلف عن تلك التي ذكرناها في الهامش رقم ٢٨. انظر: Bonebakker, *Hatimi*, pp. 18-20, 26-30.

(٧٩) حققه محمد رضوان الداية ونشره في دمشق سنة ١٤٠٢هـ.

عن سرقاته أيضًا القاضي الجرجاني في *الوساطة بين المتنبي وخصومه*، ومحمد بن أحمد العميدي في *الإبانة عن سرقات المتنبي*، وسعيد بن المبارك بن الدهان في *الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية من المعاني الطائية*،(٨٠) وغيرهم كثير.

وتحتوي *الرسالة الموضحة* للحاتمي على تفاصيل النقاش الذي دار بين الحاتمي والمتنبي حول موضوع السرقات، إذ بعد أن اتهم الحاتمي أبا الطيب المتنبي بالسرقة من أبي تمام والبحتري والصنوبري وأبي دلامة،(٨١) رد المتنبي على الحاتمي بكلام يشير إلى إدراكه التام لآراء النقاد في موضوع السَّرَق. يقول المتنبي: «. . . أما ما نعيته علي من السَّرَق فما يدريك أني اعتمدته، وكلام العرب آخذ بعضه برقاب بعض، وآخذ بعضه من بعض، والمعاني تعتلج في الصدور، وتخطر للمتقدم تارة، وللمتأخر أخرى، والألفاظ مشتركة مباحة. وهذا أبو عمرو بن العلاء سُئِلَ عن الشاعرين يتفقان في اللفظ والمعنى مع تباين ما بينهما، وتقاذف المسافة بين بلادهما، فقال: تلك عقول رجال توالت على ألسنتها.

وبعد، فمن الذي تعرى من الاتباع؟ وتفرد بالاختراع والابتداع، لا أعلم شاعرًا جاهليًّا ولا إسلاميًّا إلا وقد احتذى واقتفى، واجتذب واجتلب.»(٨٢)

وقد عزز المتنبي أقواله بإيراد نماذج من سرقات فحول شعراء الجاهلية والإسلام، فقد أورد خمسة أبيات لامرىء القيس سرق معانيها من أبي دؤاد الأيادي، من ذلك قوله:

كأن مَكَاكِيَّ الجِوَاء غُدَيَّةً صُبِحْن رحيقًا من سُلاف مفلفل(٨٣)

فقد ذكر المتنبي أن امرأ القيس اعتمد فيه على قول أبي دؤاد الأيادي:

تخال مَكَاكِيَةُ بالضحى خلال الدَّقَارِى شَرْبًا ثِمالا(٨٤)

---

(٨٠) انظر في ذلك: ابن الأثير، *الاستدراك*، ص ص١-٣؛ ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، جـ٢، ص٣٨٢.

(٨١) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٢١، ١٠٦-١٠٧، ١٤٢.

(٨٢) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٤٣؛ وانظر أيضًا: أبو القاسم الأصفهاني، *الواضح*، ص١٠.

(٨٣) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٤٣؛ وانظر: يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم الشنتمري، *شرح ديوان امرىء القيس بن حجر الكندي*، تصحيح الشيخ ابن أبي شنب (الجزائر: الشركة الوطنية، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص٣٧١.

(٨٤) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٤٤.

ثم أورد المتنبي قول النابغة الذبياني:

وتخالها في البيت إذ فاجأتها   قد كان محجوبًا سراجُ الموقد(٨٥)

وذكر أنه اعتمد فيه على قول امرىء القيس:

تضيء الظلام بالعشاء كأنها   منارة ممسي راهب متبتل(٨٦)

ثم أورد المتنبي قول زهير:

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا   ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا(٨٧)

وذكر أنه اعتمد فيه على قول مهلهل:

أنبضوا مَعْجِسَ القِسِي وأبرقـ   ـنا كما توعد الفحولُ الفحولا(٨٨)

ثم أورد قول الأعشى في وصف الطَّيف:

يلوينني ديني الغداةَ وأقتضى   ديني إذا وَقَذَ النعاسُ الرُّقدا(٨٩)

وذكر أنه أخذه من عمرو بن قميئة:

نأتك أمامةُ إلا سؤالا   وإلا خيالا يُوافي خيالا

يوافي مع الليل ميعادُها   ويأبى مع الصبح إلا زوالا(٩٠)

ثم شفع المتنبي هذه الأبيات بأبيات أُخر لعدد من مشاهير الشعراء في الجاهلية والإسلام سرقوها من شعراء تقدموهم، ومن بين أولئك الشعراء الذين سرقوا: أبو تمام

---

(٨٥) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٤٥؛ وانظر: زياد بن معاوية، النابغة الذبياني، *ديوان النابغة الذبياني*، جمع وتحقيق وشرح محمد الطاهر ابن عاشور (تونس والجزائر: الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، ١٩٧٦م)، ص٩٥.

(٨٦) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٤٥؛ الأعلم الشنتمري، شرح *ديوان امرىء القيس*، ص٧٨.

(٨٧) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٤٥؛ يوسف بن سليمان بن عيسى: الأعلم الشنتمري، شعر زهير بن *أبي سلمى*، تحقيق فخر الدين قباوة، ط٣ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص٧٧.

(٨٨) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٤٥.

(٨٩) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٤٥؛ وانظر: ميمون بن قيس الأعشى، *ديوان الأعشى* (بيروت: المؤسسة العربية، د. ت.)، ص٥٤.

(٩٠) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٤٦؛ وانظر: صبحي، *نظرية*، ص ص٣١-٣٢.

والبحتري،(٩١) فقد ذكر الحاتمي أن الوزير المهلبي طلب منه أن يناقش أبا الطيب المتنبي في شعر هذين الشاعرين وأن يبلوَ ما عنده فيهما(٩٢) وقد تمت المناقشة — كما يقول الحاتمي — في مجلس الوزير المهلبي وبحضوره، وقد حضرها أيضًا عدد من العلماء.(٩٣) وقد كشف المتنبي في ذلك المجلس عن عميق معرفته بشعر هذين الشاعرين وبسرقاتهما الكثيرة، فقد ذكر أن أبا تمام أخذ قوله:

فلا تحسبا هندًا لها الغدرُ وحدها   سجية نفس كُلُّ غانية هندُ(٩٤)

من قول الأضبط بن قريع السعدي، وكان سيد قومه بني سعد فرأى منهم حسدًا فتركهم ونزل في غيرهم فلقي من هؤلاء ما لقي من أولئك فقال: أينما أذهب ألقَ سعدًا. «أي الناس مثلُ قومي في حسدهم ساداتهم.»(٩٥)

وقد ذكر المتنبي أن أبا تمام أخذ البيت الثاني في قوله:

فلو كان يفنى الشعرُ أفنته ماقرت   حياضُكَ منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول إذا انجلت   سحائب منه أُعْقِبَتْ بسحائب(٩٦)

من قول أوس بن حجر:

أقول بما صَبَّت عليهم غمامتي   وجهدي في حبل العشيرة أحطب(٩٧)

ولم ينكر الحاتمي ما بين المعنيين من صلة ولكنه أثنى على أبي تمام في إخفائه الأخذ، وزيادته

---

(٩١) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٥٩-١٧٧، ١٧٩-١٨١، ١٨٦-١٨٩، ١٩١-١٩٤.

(٩٢) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٥٦.

(٩٣) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٥٦، ١٥٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢.

(٩٤) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٥٩؛ وانظر: يحيى بن علي الخطيب التبريزي، *ديوان أبي تمام*، تحقيق محمد عبده عزام (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، جـ٢، ص٨١.

(٩٥) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٥٩-١٦٠.

(٩٦) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٦٢؛ وانظر: الخطيب التبريزي، *ديوان أبي تمام*، جـ١، ص٢١٤.

(٩٧) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٦٢؛ وقارن مع: الحسن بن بشر الآمدي، *الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري*، تحقيق أحمد صقر، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، جـ١، ص١٠٢.

على المعنى زيادة لطيفة بقوله: «ولكنه صوب العقول.»(٩٨)

وقد أثار ثناءُ الحاتمي على أبي تمام في حسن أخذه من أوس بن حجر حفيظةَ المتنبي فقال: «كيف يكون أبو تمام محسنًا في الأخذ وهو القائل:

يقود نواصيها جُذَيلُ مشارق   إذا آبَهُ هَمٌّ عذيقُ مغارب

وقد أخذه من أجزل لفظ وأفصحه لبعض المتقدمين:

وركب بأبصار الكواكب أبصروا   ضلالَ المهارَى فاهتدوا بالكواكب
يكونون إشراق المشارق مَرَّةً   وأخرى إذا غابوا غروب المغارب»(٩٩)

وقد ذكر المتنبي أيضًا أن قول أبي تمام:

أَصَمَّ بك الناعي وإن كان أسمَعَا   وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

مأخوذ من قول الشاعر:

نعى لي أبا المقدام فاسودَّ منظري   من الأرض واستكت عليَّ المسامع(١٠٠)

وقد وافقه الحاتمي في قوله ولكنه أضاف بأن أبا تمام قد اختصر المعنى، ووضَّحه، وقَرَّبَه إلى الذهن فأصبح أحقَّ به من صاحبه.(١٠١)

وقد ذكر المتنبي أن أبا تمام أخذ مطلع قصيدته الشهير:

السيف أصدق أنباءً من الكتب   في حده الحدُّ بين الجد واللعب

من قول أحد الشعراء المتقدمين:

فلا تكثروا فيها الضجاج فإنه   محا السيف ما قال ابنُ دارة أجمعا

وقد وافق الحاتمي أبا الطيب في رأيه هذا.(١٠٢) كما ذكر المتنبي أن قول أبي تمام:

---

(٩٨) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٦٢.

(٩٩) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٦٢-١٦٣؛ وقارن مع: الخطيب التبريزي، *ديوان أبي تمام*، جـ١، ص٢٠٢.

(١٠٠) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٧١-١٧٢؛ وانظر: الخطيب التبريزي، *ديوان أبي تمام*، جـ٤، ص٩٩.

(١٠١) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٧٢.

(١٠٢) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٦٩-١٧٠؛ ونظر: الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص ص٥٩-٦٠.

وركب كأطراف الأسنة عَرَّسُوا   على مثلها والليل تسطو غياهبه

مأخوذ من قول كثير:

أطافت بشعثٍ كالأسنةِ هُجَّدٍ   بخاشعةِ الأصواء غُبْرٌ صحونها(١٠٣)

كما أن قوله:

لأَمْرٍ عليهم أن تتمَ صُدوره   وليس عليهم أن تتمَّ عواقبه

مأخوذ من قول الشاعر:

غلامٌ وغَى تقحَّمها فأبلى   فخان بلاءَهُ الزمنُ الخؤونُ
وكان على الفتى الإقدامُ فيها   وليس عليه ماجنت المنونُ(١٠٤)

وأن قوله:

إليك جَزَعْنا مغرب الشمس كُلَّما   قطعنا مَلاً صَلَّتْ عليكَ سَباسِبُه

مأخوذ من قول بشار:

إذا ما أعرنا سيدًا من قبيلة   ذُرى منبر صلى علينا وسلما(١٠٥)

ولم ينكر الحاتمي إلمام أبي تمام بهذه المعاني ولكنه، على عادته في الدفاع عَمَّن ينتقدهم المتنبي، يرى أن أبا تمام قد تناول معاني غفلاً فطورها ونقح صياغتها فغدت ملكًا له بهذه الإضافة التي أضافها إليها.(١٠٦) وأضاف المتنبي أن قول أبي تمام:

والسيف ما لم يُلْفَ فيه صيقلٌ   من نفسه لم ينتفع بصقال

مأخوذ من قول امرىء القيس:

يدعى صقيلاً وهو ليس له   عهدٌ بتمويه ولا صقل(١٠٧)

---

(١٠٣) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٨٠، ٢٣٤؛ وقارن مع: الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص ص٢١، ٦٢؛ محمد بن يحيى الصولي، *أخبار أبي تمام*، تحقيق خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي (بيروت: المكتب التجاري، د. ت.)، ص ص١١٧-١١٨.

(١٠٤) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٨١؛ وقارن مع: الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص ص٢١، ٦٢؛ الصولي، *أخبار أبي تمام*، ص ص١١٧-١١٨.

(١٠٥) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٨٠-١٨١.

(١٠٦) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٨١؛ صبحي، *نظرية*، ص٣٣.

(١٠٧) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٩٠.

وأن قول أبي تمام:

أحلى الرجال من النساء مواقعًا   من كان أشبههم بهنَّ خدودا

مأخوذ من قول الأعشى:

وأرى الغواني لايُواصلن امرأ   فَقَدَ الشباب وقد يَصِلْنَ الأمردا(١٠٨)

ثم دار النقاش بين الحاتمي والمتنبي حول المعاني المخترعة التي أوردها البحتري في شعره، فذكر الحاتمي أن من بين اختراعاته قوله:

إذا خطرت تَأَرَّجَ جانباها   كما خطرت على الروض القبولُ
ويحسن دَلُّها والموت فيه   وقد يُسْتَحْسَنُ السيفُ الصقيل(١٠٩)

فاعترض المتنبي على هذا الاستشهاد مشيراً إلى أن البيت الأول مأخوذ من قول أبي نواس يصف خمرا:

كأنَّا لديها بين أكناف روضة   إذا ما سلبناها من الليل طيبها

وأن الشطر الثاني من البيت الثاني مأخوذ من قول أبي الشيص:

وكالسيف إن لاينته لان متنهُ   وحَدَّاهُ إن خاشنته خشنان(١١٠)

وقد ذكر الحاتمي أن أبا سعيد السيرافي، الذي كان من بين من حضر هذه المناقشة، لم يَرَ شَبَهًا بين بيت البحتري الأول وبيت أبي نواس فقال مخاطبًا المتنبي: «ما أبعد هذا المعنى،» فأجابه المتنبي: «قل ما أقربه وأشد شَبَهَه.»(١١١)

كما أن الحاتمي نفسه قد استنكر دعوى المتنبي بأن البحتري قد أخذ معناه من أبي الشيص، وذلك لِبُعْدِ ما بين المعنيين ولكنه لم ينكر أن يكون البحتري قد نظر إلى المعنى من بُعْد، ثم كساه حُلَّة جديدة، واختار له ألفاظًا عذبة تفوق ألفاظ أبي الشيص وعبارته.(١١٢)

ولما ذكر الحاتمي أن من بين اختراعات البحتري قوله:

---

(١٠٨) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٩٠؛ وانظر: الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص٦١.

(١٠٩) *الرسالة الموضحة*، ص ص١٩١-١٩٢.

(١١٠) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٩٢-١٩٣؛ وقارن مع: الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص ص٣٣٧-٣٣٨.

(١١١) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٩٢.

(١١٢) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٩٣.

ولما التقينا والنقا موعد لنا تعجب رائي الدُّر حسنًا ولاقطه
فمن لؤلؤ تبديه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

أجابه المتنبي بأن هذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر:

هي الدُّر منثورًا إذا ما تكلمت وكالدر منظومًا إذا لم تكلم(١١٣)

وقد ذكر الحاتمي أن الوزير المهلبي تدخل في المناقشة في هذا الموطن مثنيا على بيتي البحتري، ومشيدًا بتطويره للمعنى الذي استفاده ممن سبقه. يقول المهلبي: «ومن لك بمن يحسن إحسان البحتري في أخذه هذا، إن كان أخذه منه، وهل هو في ذلك إلا كمن اجتنى مُرَّ ثمرة، أو أخذ بَعْرة فأعادها جوهرة.»(١١٤)

هذا وإذا تركنا الحوار التفصيلي الذي دار بين المتنبي والحاتمي حول سرقات بعض الشعراء من بعض، وعدنا إلى مقولة المتنبي التي مرت بنا في مطلع حديثنا عن السرقات، تلك التي أبدى فيها وجهة نظره حول السَّرَق، وجدنا الحاتمي يعترف بأن تلك المقولة قد صادفت استحسانًا من الوزير المهلبي ومن غيره ممن حضروا مجلس المناقشة، وليس غريبًا أن تلقى مقولة المتنبي ذلك الاستحسان، فهي قد اشتملت على خلاصة آراء النقاد المعتدلين الذين يدركون المأزق الحرج الذي واجهه الشاعر المحدث حيث قد سبقه الشعراء المتقدمون إلى معظم المعاني الجيدة ولم يتركوا له إلّا بقايا، إما أنها قد «تركت رغبة عنها، واستهانة بها، أو لبعد مطلبها، واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها.»(١١٥) ولهذا فإن أولئك النقاد يتسامحون في موضوع السَّرَق ولا يعدونه من كبير عيوب الشعراء لأنه لم يسلم منه أحد في القديم ولا في الحديث. يقول الجاحظ: «ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيب مصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديع مخترع إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه، إن هو لم يَعْدُ على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكًا فيه، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم، وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحقَّ بذلك

---

(١١٣) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٩٣-١٩٤.

(١١٤) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٩٤.

(١١٥) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص ص٢١٤-٢١٥.

المعنى من صاحبه، أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط، وقال إنه خطر على بالي من غير سماع، كما خطر على بال الأول.»(١١٦) ويقول أحمد بن أبي طاهر:

> كلام العرب ملتبس بعضه ببعض، وآخذ أواخره من أوائله، والمُبْتَدَعُ منه والمُخْتَرَعُ قليل إذا تصفحته وامتحنته. والمُحْتَرِسُ المتحفِّظُ والمطبوعُ بلاغة وشعرا من المتقدمين والمتأخرين لا يسلم أن يكون كلامه آخذًا من كلام غيره، وإن اجتهد في الاحتراس، وتخلل طريق الكلام، وباعد في المعنى، وأقرب في اللفظ، وأفلت من شباك التداخل، فكيف يكون ذلك مع المتكلف المتصنع والمعتمد القاصد... وقد رأينا الأعرابي أعرم لا يقرأ ولا يكتب، ولا يروي ولا يحفظ، ولا يتمثل ولا يحذو، ولا يكاد يخرج كلامه عن كلام مَنْ قبله، ولا يسلك إلا طريقة قد ذللت له.
>
> ومن ظن أن كلامه لا يلتبس بكلام غيره، فقد كذب ظنه وفضحه امتحانه... ولو نظر ناظر في معاني الشعر والبلاغة حتى يخلص لكل شاعر وبليغ ما انفرد به من قول، وتقدم فيه من معنى لم يشركه فيه أحد قبله ولا بعده لألفى ذلك قليلاً معدودًا ونزرًا محدودا.»(١١٧)

إن هذا النص الذي أوردناه لأحمد بن أبي طاهر قد نقله إلينا الحاتمي نفسُهُ في مؤلف آخر من مؤلفاته، ولم يعترض عليه الحاتمي بشيء، بل إنه قد صَدرَ به الفصلَ الذي خصصه للحديث عن السرقات والمحاذات مما يوحي بأنه كان مقتنعًا به، مؤمنًا بما تضمنه على العكس من موقفه المعارض لمقولة المتنبي كما سنرى.

وهناك نقاد آخرون أيضًا لا يهتمون كثيرًا بموضوع السرقات، نذكر من بينهم الآمدي والقاضي الجرجاني. يقول الآمدي في مطلع حديثه عن سرقات البحتري: «وكان ينبغي أن لا أذكر السرقات فيما أخرجه من مساوىء هذين الشاعرين؛ لأنني قد قدمت القول في أن مَنْ أدركته من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوىء الشعراء وخاصة المتأخرين، إذ كان هذا بابا ما تعرى منه متقدم ولا متأخر.»(١١٨) ويقول القاضي الجرجاني معتذرًا للمحدثين عما اتهموا به من سرقة: «ومتى أنصفتَ علمتَ أن أهل عصرنا،

---

(١١٦) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *كتاب الحيوان*، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، ط٣ (بيروت: المجمع العلمي العربي الإسلامي، ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م)، جـ٣، ص٣١١.

(١١٧) انظر: الحاتمي، *حلية المحاضرة*، جـ٢، ص٢٨.

(١١٨) الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص ص١٣٨، ٣١١.

ثم العصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة وأبعد من المذمة؛ لأن مَنْ تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها. . ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريبًا مبتدعًا، ونَظْمِ بيت يحسبه فردًا مخترعًا، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجدهُ بعينه، أو يجد له مثالاً يغض من حسنه، ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بَتَّ الحكم على شاعر بالسرقة.»(١١٩)

أما الحاتمي فقد عَزَّ عليه أن تلقى مقولة المتنبي قبولا من الوزير المهلبي وممن حضروا مجلسه، لذا فقد صرح بأنها لا تستحق ذلك الاستحسان، ثم أعلن عن رفضه الصريح لجزء من تلك المقولة، وقبوله للجزء الآخر منها ولكن بشروط اشترطها. يقول الحاتمي:

> أما قولك إن المعنى يعتلج في الصدور فيخطر للمتقدم تارة وللمتأخر أخرى، وإن الألفاظ مشتركة فليس الأمر كما تخيلته ولا الكلام كله مشترك، ولا أن الأول ليس بأولى به من الآخر. ولو كان كذلك لسقطت فضيلة السابق ولبطلت مهلة المتقدم ولما قُدِّمت شعراء الجاهلية على شعراء الإسلام. . .
>
> وأما قولك مَنْ هذا الذي تعرى من الاتباع والاحتذاء، وسلوك الطريق الذي تقدم إليها غيره من الشعراء، فلعمري إن الأمر على ما ذكرته، إلا أنه لا يحمد من الكلام ما كان غابًّا، ولا من المعاني ما كان مكررًا مرددًا، فلا يتسمح الشاعر بأن يكون جمهور شعره عند التصفح مُسْتَرقا مُلْصَقا، ومجموعًا ملفقا، ولا أن يكثر الاعتماد في شعره، ويتناصر السرق في كلامه. ومن سبيل المحتذي أن يأخذ المعنى دون اللفظ، ثم أن يطويه إن كان مكشوفًا، ويكشفه إن كان مستورًا، ويحسن العبارة عنه، ويختار الوزن العذب له. . . وأنت إذا تأملت الأبيات التي احتججت بها وجدت كثيرًا من المأخوذ فيها مُبَرزا على المأخوذ منه، متقدمًا في ميدان البيان، محكومًا فيه للآخذ بالإحسان، أو مساويًا له كل المساواة. . . فأما أن يجتلب الشاعر المعنى ويقصر عن استيفائه تقصيرك، ويسيء العبارة عنه إساءتك، ويقع أبدا دون الأول فغير محتمل له، ولا متسمح فيه، ولا محكوم بالإحسان في شيء منه. (١٢٠)

---

(١١٩) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص ص٢١٤-٢١٥.

(١٢٠) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤؛ وانظر: صبحي، *نظرية*، ص٣٢.

إن تتبع أقوال الحاتمي هذه واعتراضاته ومن ثم مناقشتها يَخْرُجُ عن نطاق دراستنا الحالية المقيدة بـ «ثقافة أبي الطيب المتنبي النقدية،» ولعلنا أن نوفق إلى متابعة هذا الموضوع في دراسة لاحقة.

٤ ـ مآخذه على بعض الشعراء

لقد آخذ الحاتمي أبا الطيب المتنبي على أشعار خانته فيها سليقته، فجاءت بعض أبياته في منزلة أدنى كثيرًا من أشعاره الأخرى، ومن أجل هذا التفاوت البين وقف كثير من نقاد أبي الطيب عند تلك الأبيات واتخذ بعضهم منها حجة يسقطون بها كثيرًا من شعره.. وعندما عابه الحاتمي بتلك الأبيات وقف المتنبي مدافعًا عن نفسه طالبًا أن يُنْظَرَ إليه على أنه واحد من الشعراء، وأن يُحْكَمَ عليه بالمعايير التي يُحْكم بها على الشعراء السابقين له، حيث إن أولئك الشعراء، كما يذكر المتنبي، قد وقعوا في مثل ما وقع فيه، إذ إنه لا يوجد شاعر تتشابه أعجاز أشعاره وصدورها، وتتناسب أوائلها وأواخرها، ولا يوجد شاعر يسلم من العيب عندما يتعقبه متعقب. والواجب في نظر المتنبي أن يسامح الشاعر على سيئاته القليلة إذا كانت إجادته أكثر من سيئاته.(١٢١)

ومن أجل أن يعزز المتنبي وجهة نظره المتمثلة في أن الشعراء الفحول الذين تضرب بهم الأمثال يحسنون ويسيئون، ومع ذلك تغتفر لهم إساءاتهم في مقابل إحسانهم، رأيناه يورد أشعارًا جيدة وأخرى رديئة لأربعة من فحول الجاهليين وهم: امرؤ القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى، وتتبع المتنبي لأشعار هؤلاء الشعراء واستحضاره لتلك الأشعار في لحظة نقاش فوجىء بها تكشف عن سعة حفظه، وعمق اطلاعه على شعر من سبقه، ومعرفته بالجيد والرديء من ذلك الشعر، هذا مع الأخذ في الاعتبار أن ما نُقِلَ إلينا من أقواله إنما نُقِلَ عن طريق خصم لا يتوقع أن يورد كل ما سمع مما من شأنه أن يعلي من شأن أبي الطيب.

ذكر المتنبي أن امرأ القيس «وهو إمام الشعراء، والفاتقُ لهم أكمام المعاني، وَرَبُّ القصب والسبق إلى كل لفظ مهذب، ومعنى مخترع، وتشبيه مبتكر، قد أحسن في مواضع، وأساء في حال، كما أحسن في حال.»(١٢٢)

---

(١٢١) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٧٨.

(١٢٢) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٧٨.

وقد أورد المتنبي له عدة أبيات بعضها من أجود أنواع الشعر، وبعضها من النوع المتوسط، وبعضها من النوع الهابط. وهذا التفاوت مثلما يوجد في قصائد مختلفة يوجد كذلك في القصيدة الواحدة. فلقد قال امرؤ القيس في وصف طيب رائحة المرأة بيتًا يضرب به المثل في الجودة وهو قوله:

ألم تَرَ أني كلما جئت طارقًا وجدتُ بها طيبًا وإن لم تطيب

ثم أتبع هذا البيت ببيت آخر يكمل به صفة هذه المرأة وهو قوله:

عقيلة أتراب لها لا ذميمةٌ ولا ذاتُ خَلْقٍ إن تأملت جأنب(١٢٣)

والبيت الثاني — بلا ريب — أقل جودة من البيت الأول.

وذكر المتنبي أن امرأ القيس قد وصف الفرس في القصيدة التي منها هذان البيتان وصفًا يكشف عن مدى ثقة أهله بسرعته وإدراكه لما يطلبه حيث يقول:

إذا ما ركبنا قال وِلْدَانُ أهلنا تعالوا إلى أن يأتي الصيدُ نَحْطِبِ

ثم وصف الفرس في القصيدة نفسها وصفًا مغايرًا للوصف الأول حيث يقول:

فللزجر ألهوب وللساق دِرَّةٌ وللسوط منه وقع أخرجَ مُهذبِ(١٢٤)

ثم ذكر المتنبي أن من التفاوت البَيِّنِ في شعر امرىء القيس قوله في وصف عُقَاب:

تَصَيَّدُ خِزَّانَ الأنيعم بالضحى وقد حجرت منها ثعالبُ أورالِ

ثم قوله بعد ذلك عقب هذا البيت:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العناب والحشف البالي(١٢٥)

فقد تعجب المتنبي من بُعْدِ ما بين البيتين، ومن شدة تنافي ما بين الكلامين.(١٢٦)

---

(١٢٣) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٧٨-٧٩؛ وانظر: الأعلم الشنتمري، *شرح ديوان امرىء القيس*، ص١٢٦.

(١٢٤) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٧٩؛ وقارن مع: الأعلم الشنتمري، *شرح ديوان امرىء القيس*، ص ص١٤٣، ٣٨١.

(١٢٥) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٧٩؛ وقارن مع: الأعلم الشنتمري، *شرح ديوان امرىء القيس*، ص ص١٢١-١٢٢.

(١٢٦) انظر مثلاً: عبدالقاهر الجرجاني، *كتاب أسرار البلاغة*، تحقيق هـ. ريتر (استانبول، مطبعة وزارة المعارف، ١٩٥٤م)، ص ص١٧٦، ١٧٨، ١٨٣؛ ابن رشيق، *العمدة*، جـ١، ص ص٤٤٨-٤٤٩، ٤٩٤.

ومع أن المتنبي لم ينص على أي البيتين مقدم على الآخر، فإن الأمر واضح إذ البيت الثاني مما أجمع النقاد على جودته، وهم يعدونه من بين ما تفرد به امرؤ القيس.

والأمثلة التي مضت ورد التفاوت بينها مع أن كل اثنين منها من قصيدة واحدة. أما ما ورد التفاوت فيه وهو من قصيدتين مختلفتين، فإن أبا الطيب يورد من ذلك قول امرىء القيس:

من ذِكْرِ ليلى وأينَ ليلى وخيرُ ما رُمتَ ما ينالُ(١٢٧)

فقد أُعجب المتنبي كثيراً بهذا البيت فوصفه بأنه «من أحسن كلام، وأسهله، وأجزله، وأشرده مثلاً وأعذبه نهلا.»(١٢٨)

ثم إن امرأ القيس طرق هذا المعنى في قصيدة أخرى فقال:

أَمِنْ ذِكْرِ ليلى إذ نأتك تنوصُ فَتَقْصُرُ عنها خطوةً وتَبُوصُ
تبوص وكم من دونها من مفازة ومن أرض جدب دونها ولصوص(١٢٩)

فالمتنبي يرى أن هناك بونًا بين الكلامين، إذ لايُقارَن البيتان الأخيران بالبيت الأول فهو أعلا منهما بلاغة، وأجود صياغة.(١٣٠)

ثم تحدث المتنبي عما في شعر النابغة من تفاوت، فذكر من بين ذلك ما نجده في قصيدته العينية حيث قال النابغة بيتًا صار مضرب المثل في الشهرة والجودة وهو قوله:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي وإن خلت أن المُنْتَأى عنك واسع

ثم شفع هذا البيت ببيت آخر دونه كثيراً وهو قوله:

خطاطيفُ حُجن في حبالٍ متينة تَمُدُّ بها أيد إليك نوازع(١٣١)

---

(١٢٧) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٧٩؛ وانظر: الأعلم الشنتمري، *شرح ديوان امرىء القيس*، ص٥٠٦.

(١٢٨) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٧٩.

(١٢٩) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٠؛ وقارن مع: الأعلم الشنتمري، *شرح ديوان امرىء القيس*، ص ص٣٣٣-٣٣٤.

(١٣٠) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٠.

(١٣١) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٠؛ وانظر: النابغة الذبياني، *ديوان النابغة*، ص١٦٨.

وقال النابغة في وصف حِجْلَي المرأة وامتلاء ساقيها قولاً سبق به غيره واقتدى به الناس فيه وهو قوله:

على أن حجليها وإن قُلْتَ أُوسِعا   صموتان من مَلْء وقلة منطق

ثم قال بعد ذلك واصفًا طول عنق تلك المرأة فبالغ مبالغة غير محمودة:

إذا ارتعشت خاف الجبانُ رِعَاثَها   ومن يتعلق حيث عُلِّقَ يفرق(١٣٢)

ولم ير الحاتمي في هذا البيت عيبًا، بل كان يرى أن النابغة لم يخرج فيه عن حد الاعتدال المستحسن في مثله، فهو يصف هذه المرأة بأنها قد جمعت إلى طول العنق طول القامة (فَبَعُدَ مهوى قرطها من أجل تمام خلقها وطول عنقها). (١٣٣)

ثم انتقل المتنبي إلى الحديث عن زهير بن أبي سلمى فأشار إلى أنه وهو المعروف بالحذق، وتصفية الشعر، وتهذيب اللفظ قد وقع في مثل ما وقع فيه امرؤ القيس والنابغة من تفاوت بين أبياته. ففي قصيدته اللامية المشهورة نجد أبياتًا في غاية الجودة مثل قوله:

على مكثريهم حَقٌّ من يعتريهم   وعند المقلين السماحةُ والبذلُ
سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم   فلم يفعلوا ولم يلاموا ولم يألوا
فما كان من خير أتوه فإنما   توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطيَّ إلا وشيجُهُ   وتغرس إلا في منابتها النخل(١٣٤)

ثم نجده يقول في هذه القصيدة:

فأقسمت جَهْدًا بالمحصَّب من مِنَى   وما سُحِقَت فيه المقاديم والقمل(١٣٥)

ويرى المتنبي أن ما ورد في هذا البيت الأخير هو من أوضع لفظ وأرذله، وقد وافقه الحاتمي

---

(١٣٢) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨١؛ وقارن مع: النابغة الذبياني، *ديوان النابغة*، ص ص١٨١-١٨٢؛ الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص٤٠.

(١٣٣) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨١؛ وقارن مع: الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص٤٠.

(١٣٤) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٨١-٨٢؛ وقارن مع: الأعلم الشنتمري، شعر زهير بن *أبي سلمى*، ص ص٤٢-٤٤.

(١٣٥) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٢؛ وانظر: الأعلم الشنتمري، شعر زهير بن *أبي سلمى*، ص٣٢.

في أن كلمة (القمل) مما لا يستحسن، أما ما عدا ذلك فإنما جرى فيه زهير على عادة العرب في أقسامها. (١٣٦) وقال زهير:

سواء عليه أيَّ حين أتيته   أساعةَ نحس تُتَّقى أم بأسْعُد
فلو كان حمدٌ يُخلد المرءَ لم يمت   ولكن حمد المرء ليس بمخلد(١٣٧)

ويقول المتنبي إن «هذا لفظ شريف انتظم مثلين شرودين سارا شرقًا وغربًا.»(١٣٨)

ثم قال في القصيدة نفسها:

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لم يكثر غنيمة   بنهكة ذي قربى ولا بحقلَّد(١٣٩)

ويقول المتنبي: «كأن هذا اللفظ مع جفائه وقلقه لم يجتمع وما تقدم من ذلك اللفظ الجزل في صدر واحد.»(١٤٠)

أما الحاتمي فيلتمس عذرًا لزهير في إيراده كلمة «حقلد» وهي كلمة غريبة تعني الضيِّق، السيء الخلق بحجة أنه إنما جرى في ذلك على «لغته ولسانه»، وأنه لذلك لا ينبغي لنا أن نعيبه بها وندعي أنها من مساوئه. (١٤١) ثم انتقل المتنبي إلى الحديث عن الأعشى الشاعر المبرز في النسيب، والهجاء، والمديح فذكر أنك تجد له شعرًا يبلغ أقصى غايات الجودة، ثم تجد له شعرًا ينحط عن ذلك كثيرًا، بحيث لو تخلص منه لكان أجدى عليه. فمما أحسن فيه الأعشى قوله في الهجاء:

كلا أبويكم كان فرعًا دِعَامَةً   ولكنهم زادوا وأصبحتَ ناقصا
تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم   وجاراتكم غرثى يبتن خمائصًا(١٤٢)

---

(١٣٦) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٢.

(١٣٧) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٢؛ وقارن مع: الأعلم الشنتمري، شعر زهير بن *أبي سلمى*، ص ص١٨٧، ١٩٠.

(١٣٨) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٢.

(١٣٩) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٢؛ وانظر: الأعلم الشنتمري، شعر زهير بن *أبي سلمى*، ص١٩٠.

(١٤٠) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٢؛ وقارن مع: الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص٣٠٢.

(١٤١) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٢.

(١٤٢) الأعشى، *ديوان الأعشى*، ص١٠٠.

«وهذا من أهجى بيت في غير فحش.»(١٤٣)

ولقد قال الأعشى مادحًا، وأجاد أيما إجادة:

فتى لو ينـادي الشمسَ ألقت قنـاعهـا   أو القمـرَ السـاري لألقى المقـالـدا(١٤٤)

ثم قال مادحًا علقمة بن علاثة:

وهــل تُنْكَــرُ الشمسُ شمسُ النهــا   رِ والـقـمــرُ البــاهــر الأبــرصُ(١٤٥)

ويقول المتنبي كأن هذا البيت الأخير والأبيات الثلاثة السابقة لم تجتمع «في خاطرة واحدة، ولا قذفت بها فكرة... ولو كانت لفظة الأبرص في كتاب الله تعالى لكدرت شرب بلاغته، ولَمَّا أراده الله، تعالى ذِكْرُهُ، كَنَّى عنه بأحسن كناية من قوله جل اسمه: «بيضاء من غير سوء.»(١٤٦)

وقد عاب المتنبي على الأعشى استعمال كلمة (الطِحَال) في قوله:

فرمــيــت غفــلــة قلبــه عن شاتــه   فأصبت حبــة قلبهــا وطِحَــالهـا(١٤٧)

وعندما التمس الحاتمي عذرًا للأعشى بأنه استخدم «الطحال» لأنه مقتل أجابه المتنبي: «هب ذاك كذاك، أما لفظة الطحال بعيدة عن ألفاظ المحبين؟»(١٤٨)

ولم يكن نقد المتنبي مقصورًا على شعر أولئك الأربعة الجاهليين وحدهم بل إنه قد تعداه إلى شعر بعض الشعراء المحدثين ومن بين هؤلاء أبو تمام. فقد ذكر الحاتمي أن اللقاء الأخير الذي تم بينه وبين المتنبي في مجلس الوزير المهلبي، وحضره الوزير نفسه، وعدد من الأدباء — كما ذكرنا — كان مخصصًا للكشف عن مدى اطلاع المتنبي على شعر أبي تمام والبحتري، وإحاطته به.(١٤٩) وقد كشف الحوار الذي دار بين الحاتمي والمتنبي حول شعر أبي تمام عن معرفة المتنبي العميقة بذلك الشعر، وإدراكه لكثير من المآخذ التي أخذت عليه.

---

(١٤٣) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٣.

(١٤٤) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٨٣-٨٤؛ الأعشى، *ديوان الأعشى*، ص٤٤.

(١٤٥) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٤؛ وقارن مع: الأعشى، *ديوان الأعشى*، ص١٠٣.

(١٤٦) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٤؛ وانظر: سورة طه، آية ٢٢.

(١٤٧) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٤؛ وانظر: الأعشى، *ديوان الأعشى*، ص١٥٠.

(١٤٨) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٨٤.

(١٤٩) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٥٦.

ذكر الحاتمي أنه بعد أن اتهم أبا الطيب المتنبي بسرقة بعض معانيه من أبي تمام والبحتري سارع المتنبي إلى إيراد أبيات لأبي تمام ووجه إليها سهام نقده، ومن تلك الأبيات قول أبي تمام:

تَجَرَّعْ أَسَىً قد أقفرَ الجَرَعُ الفَرْدُ   ودَعْ حِسْيَ عَينٍ يَحْتلبُ ماءَهُ الوَجْدُ(١٥٠)

فقال المتنبي إن أبا تمام «أحال أقبح إحالة، واستعار أبعد استعارة بتصييره للعين حسيًا، والأحساءُ توصف بقلة الماء، ومن شأن الدموع أن توصف بالغزارة من ذوي الوجد والصبابة.»(١٥١)

وعاب المتنبي أبا تمام في قوله:

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه   بكفيك ما ماريت في أنه برد(١٥٢)

وقال: إن أحدًا لم يمتدح أحدًا قبله بِرقَّة الحلم، وكان الأولى أن يصف ممدوحه «بالركانة والثخانة» كما عبر عن ذلك عدي بن الرقاع إذ يقول:

أَبَتْ لكُمُ مواطِنُ طَيِّباتٌ   وأحلامٌ لَكُمْ تَزِنُ الجِبَالا

وأضاف المتنبي: إن أبا تمام «شبه الحلم في رقته بالبُرْد، ورقة البُرْد دالَ على هلَهلة نسجه، وليس ذلك من أوصافه ولا ممادحه.»(١٥٣)

وعاب المتنبي أبا تمام في استخدام كلمة قبيحة هي «تجهضمها» في قوله:

مُسْتسلِمٌ لله سَائِسُ أُمَّةٍ   لِذَوي تَجَهْضُمِهَا لَهُ اسْتِسْلامٌ(١٥٤)

وخَطَّأ أبا تمام في قوله: «كاد بأن يُرى» من قوله:

---

(١٥٠) الخطيب التبريزي، *ديوان أبي تمام*، جـ٢، ص٨٠: الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٥٨.

(١٥١) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٥٩؛ وانظر: صبحي، *نظرية*، ص٣٣.

(١٥٢) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٥٩؛ الخطيب التبريزي، *ديوان أبي تمام*، جـ٢، ص٨٨.

(١٥٣) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٥٩؛ وقارن مع: الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص ص١٤٣-١٤٧؛ صبحي، *نظرية*، ص ص٣٤-٣٥.

(١٥٤) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٦٥؛ وانظر: الخطيب التبريزي، *ديوان أبي تمام*، جـ٣، ص١٥٣؛ محمد بن عمران المرزباني، *الموشح*، تحقيق علي محمد البجاوي (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٦٥م)، ص٤٨٢؛ صبحي، *نظرية*، ص ص٣٥-٣٦.

ملأ الملا عُصَبًا وكاد بأن يُرَى   لا خلف فيه ولا له إقدام(١٥٥)

«لأن المسموع من كلام العرب كاد يفعل.»(١٥٦) وعاب أبا تمام في تشبيهه الممدوح بالتِّنِّين في قوله:

وَلَّى ولم يَظْلم وهل ظلم امرؤ   حَثَّ النجاء وخلفه التنين(١٥٧)

كما عابه في قوله:

والمجد لا يرضى بأن يرضى بأن   يرضى الذي يرجوك إلا بالرضا(١٥٨)

وقال: «هذا والله الهذيان الذي يُشْعِلُ بطونَ المهارق ويطفىء نار القرائح.. وأراه سمع بيت مُسْلِم فأحب أن يُرَكِّبَ الكلام ويعاظله تركيب مسلم ومعاظلته في قوله:

سُلَّت وسَلَّت ثم سُلَّ سَلِيلُها   فغدا سليلُ سليلها مسلولا(١٥٩)

وهذه المآخذ التي أبداها المتنبي على شعر أبي تمام ليست جديدة تفرد بها بل قد سبقه إلى بعضها ابن المعتز في رسالته التي تحدث فيها عن محاسن شعر أبي تمام ومساوئه،(١٦٠) كما أن معظم النقاد الذين ناقشوا شعر أبي تمام قد وقفوا عند تلك الأبيات وأمثالها. وكذلك الملاحظات التي أبداها المتنبي على شعر الشعراء الأربعة الجاهليين ليست هي الأخرى جديدة. وكل من له معرفة بالشعر والنقد يدرك أن أشعار الشعراء لا تأتي على نسق واحد، وإنما تتفاوت بين الجودة، والتوسط، والرداءة.

والشيء اللافت للنظر، ويدعو إلى الإعجاب هو اطلاع المتنبي على تلك الملاحظات

---

(١٥٥) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٦٥؛ وانظر: الخطيب التبريزي، *ديوان أبي تمام*، جـ٣، ص١٥٥.

(١٥٦) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٦٥ـ١٦٧.

(١٥٧) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص١٦٧ـ١٦٨؛ وانظر: اخطيب التبريزي، *ديوان أبي تمام*، جـ٣، ص ص٣١٨ـ٣١٩؛ المرزباني، *الموشح*، ص ص٤٧٣، ٤٩٧.

(١٥٨) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٧٤؛ وانظر: الخطيب التبريزي، *ديوان أبي تمام*، جـ٢، ص٣٠٧.

(١٥٩) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٧٤؛ وقارن مع: القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٨٤.

(١٦٠) يوجد جزء من هذه الرسالة في كتاب *الموشح* للمرزباني، انظر على سبيل المثال: ص ص٤٧٠، ٤٧٣، ٤٨٣، ٤٩٧.

النقدية وإحاطته بها، واستذكاره لها وقت المناقشة بحيث غدت كأنها جزء من محفوظه، وبهذا بدا لنا أبو الطيب المتنبي أديبًا مثقفًا يحاور في شتى ضروب الأدب، ويطرح قضايا ويحتج لها، وليس مجرد شاعر يعتمد على ملكته الشعرية وحدها.

٥ ـ دعوته إلى الإنصاف في الحكم

ويتصل بموضوع نقد المتنبي شعرَ بعض الفحول الذين أحسنوا في كثير من أشعارهم وأساؤا في بعض ذلك دعوتهُ إلى اغتفار الأخطاء القليلة إذا وردت بجانب إحسان كثير فهو يدعو إلى أن يتحلى الناقد بالإنصاف وأن لا يغمط الشاعر المجيد حقه بسبب أخطاء قليلة وقع فيها، لأنه إن لم يفعل ذلك فلن يجد شاعرًا مبرأً من العيب. يقول المتنبي مخاطبًا الحاتمي: «أنصف، فإن النِّصفَة من شيمك، وأنعم النظر إنعام مثلك ممن تقدمت في العلم قَدَمُه، ووقعت الإشارة إلى موضعه، ولا تسلط الهوى على الرأي. مَن الذي تناسبت مباديه ومناهيه، وتشابهت أعجاز شعره وهواديه؟، ومَن ذا الذي بريء من مَعَاب؟ وساء من يتبع ناظمًا كان أو ناثرًا وأوّلاً من الشعر كان أو آخرًا. وما أنا ببدع منهم، وإذا أنصفت من نفسك، وألقيت رداء الحمية عن كاهلك ألفيت نفسك في جميع ما عددته من سقطاتي، ونعيته من أبياتي محجوجًا؛ لأن من أحسن في الكثير، اغتفرت إساءته في القليل اليسير.»^(١٦١) ويقول في موطن آخر موجهًا خطابه إلى الحاتمي: «أنصف فإن المنصف من يميز، وأنعم النظر إنعام من تقدمت في العلم قدمه، ووقعت الإشارة إلى فضله، ولا تسلط الهوى على الرأي... وما أبرىء خاطري، وإن كان الصواب يتصرف به على سبيله من زَلَّة تجوز بي، وعثرة لم أعتمدها.»^(١٦٢) ويقول للحاتمي مرة ثالثة وقد علت حدةُ كلامه: «... وإذا تتبعت الأشياء لا تكن كالذباب يلحق من الجلد ما كان مقروحًا. وإنه يجب لمثلك أن يحفظ معاني الشعر دون مساوئه.»^(١٦٣)

---

(١٦١) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٧٨، ٨٤ـ٨٥؛ وقارن مع: الآمدي، *الموازنة*، جـ١، ص٣٧.

(١٦٢) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٠٧؛ ويلاحظ التشابه بين كلام المتنبي هنا وكلامه الذي أوردناه قبل هذا مباشرة.

(١٦٣) الحاتمي، *مناظرة*، ص ص٢٥٧ـ٢٥٨.

ودعوة المتنبي إلى الإنصاف والابتعاد عن الهوى ناشئة عما وجده من تحامل الحاتمي عليه، فهو لا يغتفر له ما يغتفره لغيره من الشعراء، بل يدقق في تعقب أخطائه تدقيقًا لا ينسجم مع ما تتطلبه طبيعة الشعر من تسامح،(١٦٤) وعندما اعترف المتنبي ببعض الخطأ والتقصير واحتج له بأن غيره من الشعراء قد أخطأ، وأورد أمثلة على ذلك تَكَلَّفَ الحاتمي التماسَ الأعذار لأولئك الشعراء، وبذل جهودًا كبيرة في توجيه كثير من تلك الأشعار من أجل أن تسلم من العيب. فالحاتمي كان — بلا شك — متعصبًا على المتنبي، والدافع الذي دفعه إلى تعقب شعره لم يكن خالصًا لوجه العلم، فقد كان الحاتمي يحمل كرهًا للمتنبي منذ أمد طويل، منذ أن كان الحاتمي مقيمًا في بلاط سيف الدولة بحلب، وكان المتنبي في ذلك الوقت واسطة عقد ذلك المجلس، وقد جرت منازعة بين الحاتمي والمتنبي فانتصر سيف الدولة للمتنبي فأسرها الحاتمي في نفسه، وغادر بلاط سيف الدولة، وأخذ يتحين الفرصة لمنازعة غريمه. وعندما ساءت علاقة المتنبي مع سيف الدولة غادر الشاعر حلب إلى مصر، ثم لما ساءت علاقته بكافور غادر مصر إلى العراق، ولما دخل بغداد ترفع — كما هو معروف — عن مديح معز الدولة بن بويه، ووزيره أبي محمد المهلبي فأغرى المهلبي به أبا علي الحاتمي لكي يتعقب شعره، ويَحطَّ من قدره، ويحوجه — كما يقول — إلى مغادرة العراق،(١٦٥) فتهيأت له الفرصة، والدولة دولته، وهو من جلساء الوزير، لأن يتعقبه هذا التعقب الذي رأينا نماذج منه، مما دفع المتنبي إلى الاحتجاج على هذا التعصب ضده، وإلى اتهام الحاتمي بعدم الإنصاف، فقال بعد أن قُرِئت في مجلس المناقشة أبياتٌ من عيون شعره: «أما يلهيك إحساني في هذه الأبيات عن إساءة، إن كانت، في غيرها.»(١٦٦) ويبلغ التعصب مداه لدى الحاتمي فيجيب: «ما أعرف لك إحسانًا، ولا أعترف لك باختراع إذ

---

(١٦٤) انظر في ضرورة مسامحة الشعراء وعدم التدقيق الشديد عليهم ما أورده القاضي الجرجاني في *الوساطة*، ص ص٤٤٣، ٤٥٦، ٤٦١، ٤٦٥-٤٦٦، ٤٧٢؛ وانظر: صبحي، *نظرية*، ص ص٣٥، ٣٧-٣٨.

(١٦٥) انظر: الحاتمي، *حلية المحاضرة*، جـ١، ص ص٤٢-٤٣؛ الثعالبي، يتيمة *الدهر*، جـ١، ص١٣٦؛ الحاتمي، *مناظرة*، ص ص٢٥٠-٢٥١؛ الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص ص٢-٣؛ صبحي، نظرية، ص ص١٥-١٧؛ وانظر أيضًا: Bonebakker, *Hatimi*, pp. 12-13, 16-17.

(١٦٦) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٣٠.

كانت هذه الأبيات التي تتخيل أنك السابق إلى معانيها ورَبُّ الإحسان فيها مسترقة ملصقة. . . »(١٦٧)

وقد دفعت حِدَّةُ الحاتمي هذه إلى حِدَّة مشابهة من قبل المتنبي فرفض في موطن من المواطن كل اعتراضات الحاتمي على شعره يقول: « . . . وإن كنت لا أُقِرُّ فيها عِبْتَ بيتًا، إلا أنه دون ما هو أفضل، وفوق ما هو دونه من شعري. »(١٦٨) ودعوة المتنبي إلى توخي العدل والإنصاف في الحكم، ودفاعه عن شعره بالطريقة التي رأيناها، وطلب الحكم عليه بالمقاييس التي يحكم بها على فحول الشعراء غيره، هي التي فتحت الباب — فيما يبدو — للقاضي الجرجاني لكي يؤلف الوساطة بين المتنبي وخصومه. فقد توخى القاضي الجرجاني في الوساطة تطبيق المبادىء التي نادى بها المتنبي في ردوده على منتقدي شعره. (١٦٩)

٦ ـ اللغة الشعرية

عندما تعقب النقاد أبا الطيب المتنبي وحاصروه بالملاحظات التي تتهمه بمخالفة المألوف من الاستعمالات، تفتق ذهنه عن إجابات تكشف عن رأيه في اللغة الشعرية وأنها لغة تختلف عن لغة النثر، إذ يُتسمح فيها بما لا يتسمح به في تلك، فللشاعر الحرية في أن يستخدم عباراته بطريقة مخالفة للمألوف، مادام ذلك الاستخدام سيحقق له غرضًا لا يحققه له الاستخدام المألوف. فقد مَرَّ بنا في الفقرة التي خصصناها لبيان اهتمام أبي الطيب المتنبي بالمعنى والاعتراضات التي نشأت عن ذلك أن أبا الطيب قد قال مخاطبًا كافورا الإخشيدي:

وأنت الذي رَبَّيت ذا الملك مُرْضَعًا ولـيس له أُمٌ سواك ولا أب(١٧٠)

---

(١٦٧) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص١٣٠. هكذا يقول الحاتمي في هذا الموطن من *الرسالة* مع أنه سبق له أن قال في أولها: «ولم يكن هناك مزية يتميز بها أبو الطيب المتنبي عن الهجين الجذع من أبناء الأدب فضلاً عن العتيق القارح إلا الشعر، فلعمري إن أفنانه كانت فيه رطبة، ومجانية عذبة. » انظر: *الرسالة الموضحة*، ص٧؛ وانظر أيضًا: الحاتمي، *مناظرة*، ص٢٥٨.

(١٦٨) *مناظرة*، ص٢٥٨.

(١٦٩) انظر مثلاً ما أورده القاضي الجرجاني في *الوساطة*، ص ص٤، ١٠، ٥٢، ٦٥، ٦٧، ٢١٦، ٤١٥-٤٢٤، ٤٣٤، ٤٤١؛ وانظر: صبحي، *نظرية*، ص٣٠.

(١٧٠) المتنبي، *الديوان*، ص٤٦٦.

(١٧١) ابن جني، *الفسر*، جـ٢، ص ص٣٤-٣٥.

والأولى في نظر اللغويين والنحاة أن يقول: «وأنت الذي ربى ذا الملك» ليعود ضمير «الذي» إليه على لفظ الغيبة؛ لأن «الذي» إنما وقع في الكلام توصلاً إلى وصف المعارف بالجمل فكأنه قال: أنت الذي ربى.»(١٧١)

وقد ذكر ابن جني، وهو من الذين يحاولون الاعتذار للمتنبي، أن استخدام «الذي ربيت» جائز ولكنه ضعيف، والذي جوزه تقدم «أنت» فحمله على المعنى وهو ضعيف مع ذلك. وذكر ابن جني أيضًا أنه كَلَّمَ المتنبي أكثر من مرة في هذا الاستعمال فأجاب: «بأنه إذا أعاد الذِّكْرَ على لفظ الخطاب كان أبلغَ وأمدحَ من أن يرده على لفظ الغيبة. لأنه لو قال: «وأنت الذي رَبَّى ذا الملك» لعاد الضمير من «رَبَّى» على لفظ الغيبة، وإذا قال: «ربيتَ» فقد خاطبه فكان أبين.»(١٧٢)

ومع أن ابن جني قد أعجب بجواب أبي الطيب وتعليله، فإنه لم يتخل عن مبدئه اللغوي حيث قال: «ولعمري إنه لكما قال، ولكن الحمل عندنا لا يسوغ في كل موضع ولا يحسن، والوجه ما ذكرته لك وله، وفي شعره مواضع كثيرة مثل هذا، وإلى ما حكيت عنه من أنه أمدح كان يذهب.»(١٧٣)

وفي إحدى مناقشات الحاتمي لأبي الطيب آخذه الحاتمي في إيراده بيتًا مردفًا في قصيدة غير مردفة وذلك يعد شاذًا. والبيت هو:

تُمِرُّ الأنابيبُ الخواطرُ بيننا ونذكُرُ إقبالَ الأمير فَتَحْلَوْ لي(١٧٤)

فقال المتنبي: «هذا وإن كان شاذًا كما ذكرت، فإنه عذب على اللسان غير قلق من الإنشاد وقد جاء مثله للعرب:

وبالطوف نالا خيرَ ما ناله الفتى وما المرء إلا بالتقلب والطوفِ

ثم قال:

---

(١٧١) ابن جني، *الفسر*، جـ٢، ص ص٣٤ـ٣٥.

(١٧٢) ابن جني، *الفسر*، جـ٢، ص ص٣٤ـ٣٥، ٣٧.

(١٧٣) ابن جني، *الفسر*، جـ٢، ص ص٣٧ـ٣٨؛ وانظر مثالاً آخر من مناقشة ابن جني للمتنبي في: ابن جني، *الخصائص*، جـ٢، ص٤٠٣.

(١٧٤) المتنبي، *الديوان*، ص٥٢١.

فراقُ حبيب وانتهاءٌ عن الهوى   فلا تعذليني قد بدا لك ما أخفي»(١٧٥)

وعندما شَدَّد الحاتمي النكيرَ عليه قائلاً: إنه لا يجوز لُمحْدَثٍ أن يرتكب مثل ذلك كشف المتنبي عن رأيه الصريح وقال: «قد أكثرت القول فيما لا أعتد بشيء منه، وإنما أجرى على طبعي، وأقول ما يُسَوِّغُه لساني.»(١٧٦)

فأبو الطيب المتنبي لا يرى بأسًا في الانحراف عن المسلك المألوف مادام هذا الانحراف لن يؤثر في عذوبة الشعر، ولن يُحْدِثَ خللاً عند الإنشاد. بل إن هذا الانحراف قد يوفر مزايا لا يوفرها سلوك الطريق المألوف كما رأينا في احتجاج أبي الطيب لنفسه أمام اعتراض ابن جني السابق.

وموقف المتنبي الحازم من اعتراض الحاتمي على البيت المردف يتفق مع ما أثر من قوله:

أنام ملء جفوني عن شواردها   ويسهر الخلق جراها ويختصم(١٧٧)

إنه لا يعتد بما قاله الحاتمي ولا يعبأ بتلك الانتقادات وإنما يسير في الطريق الذي يقوده إليه طبعه، ويأتي بما يستحسنه لسانه. ويتفق مع هذا المبدأ الذي أعلنه المتنبي هنا والمتمثل في إعطاء الشاعر كامل الحرية في التعامل مع اللغة وعدم وضع وصاية عليه من أحد ما نقله القاضي الجرجاني من أنه قد اعتُرِضَ على المتنبي في تشديده حرف النون من كلمة «لَدُنَّه» في قوله:

فأرحامُ شِعْرٍ يتصلن لَدُنَّهُ   وأرحامُ مالٍ ماتَني تتقطع(١٧٨)

وإنما هو كما يقول القاضي الجرجاني «لَدُن ولَدْن، فأما تشديد النونَ فغير معروف في لغة العرب.»(١٧٩)

---

(١٧٥) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٧٦؛ وانظر: المتنبي، *الديوان*، ص٥٢١، هامش رقم ١.

(١٧٦) الحاتمي، *الرسالة الموضحة*، ص٧٧؛ وقارن هذا بكلام ابن جني في *الخصائص*، جـ٢، ص ص٣٩٢-٣٩٣.

(١٧٧) المتنبي، *الديوان*، ص٣٢٣.

(١٧٨) المتنبي، *الديوان*، ص٢٤.

(١٧٩) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٠.

لقد ذكر الجرجاني أن المتنبي خوطب في ذلك فجعل مكان «لَدُنَّه» «ببابه» ثم احتج لنفسه بكلام لخّصه لنا الجرجاني بقوله: «قد يجوز للشاعر من الكلام مالا يجوز لغيره لا للاضطرار إليه، ولكن للاتساع فيه، واتفاق أهله عليه، فيحذفون ويزيدون.»(١٨٠) واستشهد المتنبي بأبيات كثيرة لِمَن يُحْتَجّ بشعرهم خالف فيها قائلوها المألوف من لغة العرب، ومخالفتهم فيها أكبر من مخالفة المتنبي في تشديده النون من «لَدُنه» ثم قال المتنبي: «وللفصحاء المدلِّين في أشعارهم مالم يُسمع من غيرهم، كقول امرىء القيس: «ديمة هطلاء»، وذي الرمة «أُدْمَانة» يعني أدماء. وفي شعر ابن أحمر وأميَّة «الهينمان» و«البلقوس» و«القساوسة» في جمع قَسٌّ، ومثل هذا أكثر من أن يحصى.»(١٨١)

لقد لخص القاضي الجرجاني قولَ المتنبي ولم يورده بنصه، ولو أورده بنصه لكانت فائدتنا منه أكبر، إذ ربما ازددنا معرفة برأيه، ولربما عرفنا بدقة مصدر هذه الآراء، ومن أين سقطت إليه. أغلب الظن أن أبا الطيب المتنبي قد استمد فكرته في حرية الشاعر في التعامل مع اللغة من كلام منسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، ونَصُّ هذا الكلام كما أورده حازم القرطاجني في كتابه *منهاج البلغاء*: «الشعراء أمراء الكلام يُصَرِّفونه أنَّى شاؤوا، ويجوز لهم مالا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تصريف اللفظ وتعقيده، ومَدّ المقصور، وقصر الممدود، والجمع بين لغاته، والتفريق بين صفاته، واستخراج ما كَلَّت الألسنُ عن وصفه ونعته، والأذهانُ عن فهمه وإيضاحه، فَيُقَرِّبون البعيد، ويُبعدُون القريب، ويُحْتج بهم، ولا يُحتج عليهم، ويصورون الباطل في صورة الحق، والحقَّ في صورة

---

(١٨٠) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٠؛ وقارن ما قاله المتنبي هنا بما ذكره سيبويه تحت عنوان: «هذا ما يحتمل الشعر.» انظر: أبو بشر عمرو بن عثمان ابن قنبر، *كتاب سيبويه*، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، ط٢ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م)، جـ١، ص ص٢٦-٣٢؛ وقارنه أيضًا بما أورده ابن جني في كتاب *الخصائص*، جـ١، ص ص٣٢٧-٣٣٠؛ جـ٢، ص ص٣٩٢-٣٩٣؛ وانظر: Suaad A. al-Mana, "Poetic Necessity from the Perspective of the Medieval Arab Critics and Rhetoricians," unpublished Ph. D. thesis (University of Michigan, 1986), pp. 217, 221, 225, 226-228.

(١٨١) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص ص٤٥٠-٤٥٢؛ وانظر أيضًا: ابن جني، *الخصائص*، جـ٢، ص ص٢١-٢٥؛ جـ٣، ص ص٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٤.

الباطل.»(١٨٢) وقد مر بنا أن المتنبي كان يحفظ كتاب *العين*، فإن صحّت نسبة هذا النص إلى الخليل بن أحمد، فإن المتنبي لم يطالب بأكثر مما نادى به الخليل، ولم نسمع أن أحدًا اعترض على كلام الخليل، وإن كنا نجزم بأن اللغويين سيفسرون كلام الخليل على أنه خاص بالشعراء الذين عاشوا في عصور الاحتجاج. أما المتنبي وأمثاله، فما ينبغي لهم أن يقيسوا أنفسهم بالشعراء الذين كان الخليل يومىء إليهم. وبالتالي فليس لهم أن يحتجوا بما أورده.

ومن المرجح أيضًا أن يكون أبو الطيب المتنبي قد استمد هذه الفكرة من محاوراته مع ابن جني، ومن اطلاعه على ما أورده في كتاب *الخصائص* عن هذا الموضوع.(١٨٣) هذا وقد رفض خصـوم المتنبي بالفعل حُجَجَه التي أوردها القاضي الجرجاني، وذلك لأسباب من بينها: أن الشواذ «لا تُجْعَل أصولاً، ولا يَلزمُ لها قياس، لأن ذلك لو ساغ واستمر لانقلبت اللغة، وانتقضت الحقائق،»(١٨٤) ولأنه لابد من حَدٍّ يقف عنده الشاعر، وينتهي إليه الفرق بين النظم والنثر... ويُرجَعُ إلى ما قالت العلماء فيه، وما أُجيزَ للمضطر من التسهيل، وفُضِّلَ به النظم من التسامح، وهي أبواب معروفة، ووجوه محصورٌ أكثرها، ومعظم ما يوجد فيها رد الكلمة إلى أصلها، وإلى ما أوجب القياسُ الأعمُ لها مثل صرف ما لا ينصرف... ومثل قصر ما يُمَد.. ومثل إظهـار التضعيف... وهم إلى الحـذف فيه أميل، وبالتخفيف أولع... وهذا باب يتسع فيه القول، وتتشعب فيه الوجوه، وقد صُنفت فيه كتب معروفة، ولأهل الكوفة فيه رُخص لا تكاد توجد

---

(١٨٢) القرطاجني، *منهاج البلغاء*، ص ص١٤٣-١٤٤. وقد أورد أبو إسحاق الحصري كذلك جزءًا من هذه المقولة ونسبه إلى الخليل ابن أحمد؛ انظر: إبراهيم بن علي الحصري، *زهر الآداب*، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م)، جـ٢، ص٦٣٣؛ وانظر أيضًا: أبـو الحسين أحمد بن فارس، *الصاحبي*، تحقيق أحمد صقر (القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٧٧م)، ص٤٦٨؛ القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٣؛ أحمد مطلوب، *معجم النقد العربي القديم*، ط١ (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩م)، جـ٢، ص٥٧.

(١٨٣) انظر: ابن جني، *الخصائص*، جـ١، ص ص٣٢٧-٣٣٠؛ جـ٢، ص ص٣٩٢-٣٩٣؛ جـ٣، ص ص٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٤؛ وانظر: ابن جني، *الفسر*، جـ٢، ص ص٣٤-٣٨، ١٦٠-١٦١، ٢٦٣-٢٦٥.

(١٨٤) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٣.

لغيرهم من النحويين، كإجازتهم مد المقصور، وترك صرف الاسم المنصرف، ونحو ذلك، غير أنهم لا يبلغون به مرتبة الإهمال، ولا يُعَرِّضونه لتحكم الشعراء، ويجعلون هذا الباب من الضرورة، ويقتصرون به على الحاجة.(١٨٥)

وأبو الطيب المتنبي — كما هو معروف — كُوفي المولد، والمنشأ، والتعليم،(١٨٦) وقد وجد في المذهب النحوي لأهل الكوفة من التسمح والسعة ما لم يجده في مذهب آخر، ولهذا رأيناه يكثر من تتبع الرخص وركوب الضرورات. لقد كان أبو الطيب المتنبي شاعرًا عظيمًا، وهذا أمرٌ يعرفه كُلُّ من له حظ، ولو يسير، من الثقافة، ولكن كونه ناقدًا أدبيًّا أمرٌ ربما لا يدركه إلا قليل من الناس، وقد جاء هذا البحث محاولة متواضعة لإلقاء الضوء على هذا الجانب المهم من جوانب ثقافة أبي الطيب.

---

(١٨٥) القاضي الجرجاني، *الوساطة*، ص٤٥٣؛ وانظر أيضًا: ابن فارس، *الصاحبي*، ص ص٤٦٨-٤٧١؛ أبو الحسن أحمد بن فارس، ذم *الخطأ في الشعر*، تحقيق رمضان عبدالتواب (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص ص٢٠-٢٤.

(١٨٦) انظر: شاكر، *المتنبي*، جـ١، ص ص١٣، ١٨، ٢٨، ٦٧، ٧٣-٧٤، ٧٥، ١٢٥؛ وانظر أيضًا: ريجيس بلاشير، *أبو الطيب المتنبي*، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ط٢ (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ص٣٩-٤٩.

Al-Mutanabbi's Critical Backgroud

Mohammad Al-Hadlaq
Associate Professor, Department of Arabic, College of Arts, King Saud University,
Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. The huge bulk of publications pertaining to various aspects of al-Mutanabbi's poetical genius and biography ignore, to the best of one's knowledge, his critical skills as manifested in his defence of his poetry in the face of his critics, his pronouncements on some literary issues and his evaluations of a number of very competent poets. This paper seeks to remedy this state of affairs and to attribute to al-Mutanabbi whatever critical insights are his due. It has been found that al-Mutanabbi commanded an impressive critical background, a complete familiarity with the verse of preceding poets, and a breathtaking ability to quote those verses in support of his arguments in debates.